



منظمة الاعلام الاسلامي
قسم العلاقات الدولية



الاخلاق

عند الامام الصادق

BOBST LIBRARY



3 1142 01251 2318

DATE DUE

29

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ALMAS BOOK HOUSE

11, 12, 13, 14, 15, 16, 17, 18, 19, 20, 21, 22, 23, 24, 25, 26, 27, 28, 29, 30, 31, 32, 33, 34, 35, 36, 37, 38, 39, 40, 41, 42, 43, 44, 45, 46, 47, 48, 49, 50, 51, 52, 53, 54, 55, 56, 57, 58, 59, 60, 61, 62, 63, 64, 65, 66, 67, 68, 69, 70, 71, 72, 73, 74, 75, 76, 77, 78, 79, 80, 81, 82, 83, 84, 85, 86, 87, 88, 89, 90, 91, 92, 93, 94, 95, 96, 97, 98, 99, 100

1997

11, 12, 13, 14, 15, 16, 17, 18, 19, 20, 21, 22, 23, 24, 25, 26, 27, 28, 29, 30, 31, 32, 33, 34, 35, 36, 37, 38, 39, 40, 41, 42, 43, 44, 45, 46, 47, 48, 49, 50, 51, 52, 53, 54, 55, 56, 57, 58, 59, 60, 61, 62, 63, 64, 65, 66, 67, 68, 69, 70, 71, 72, 73, 74, 75, 76, 77, 78, 79, 80, 81, 82, 83, 84, 85, 86, 87, 88, 89, 90, 91, 92, 93, 94, 95, 96, 97, 98, 99, 100

1900
1901
1902
1903
1904
1905
1906
1907
1908
1909
1910

STATE OF

IN SENATE,

JANUARY 1, 1911.

REPORT

OF THE

COMMISSIONERS OF THE LAND OFFICE.

ALBANY:

ANDREW F. JOHNSON, STATE PRINTER.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

1911.

Zayn al-Dīn, Muḥammad Amīn

/al-Akhlāq fīnd al-Imām al-Ṣādiq/

الإخلاق
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المستأجر
محمد أمين زين الدين

ALMAS BOOK HOUSE

INVERMITY ROAD,

POST BOX No 10471

SADDAR KARACHI-8.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ALMAS BOOK HOUSE

INVESTMENT ROAD,

POST BOX NO. 10471

BADUA KARACHI-8

Zayn al-Dīn, Muḥammad Amīn

" / al-Akhlāq cinda al-Imām al-Ṣādiq /

الاخلاق

عند الامام الصادق



- ١ - العدل
- ٢ - العدل الفردي
- ٣ - العدل الاجتماعي
- ٤ - العفة
- ٥ - الشجاعة والاقتصاد
- ٦ - الشجاعة
- ٧ - الشجاعة البدنية
- ٨ - الشجاعة الأدبية
- ٩ - حمة النفس وعلو الهمة
- ١٠ - الكبرياء والتواضع
- ١١ - الصدق والكذب

المصاحفة

محمد باقر زين الدين

قضايا

BP
193
• 16
• A3
Z 39
1982
C 1



الكتاب: الاخلاق عند الامام الصادق
المؤلف: العلامة محمد امين زين الدين
الناشر: منظمة الاعلام الاسلامي — قسم العلاقات الدولية
المطبعة: سپهر
التاريخ: جمادى الاول؛ ١٤٠٣ هـ
عدد النسخ المطبوعة: ١٠,٠٠٠ نسخة

٥١ رأيا رأيا ٥١
 ٥٢ رأيا رأيا ٥٢
 ٥٦ رأيا رأيا ٥٦
 ٥٧ رأيا رأيا ٥٧
 ٥٥ رأيا رأيا ٥٥

الفهرست

الموضوع: الصفحة

مقدمة الناشر ٧

توطئة ١٤-٨

١ - الخلق ٢٢-١٥

٢ - السعادة والخير ٣٢-٢٣

٣ - الاعتدال والانحراف ٤٠-٣٣

٤ - الانسانية الكاملة ٥٠-٤١

٥ - الضمير ٥٩-٥١

٦ - الفضائل الفرعية ١١٣-٦١

* الحكمة ٦٤

* العدل ٦٩

* العدل الفردي ٧١

* العدل الاجتماعي ٧٥

* العفة ٧٩

* القناعة والاقتصاد ٨٥

* الشجاعة ٨٩

* الشجاعة البدنية ٩٢

* الشجاعة الأدبية ٩٣

* عزة النفس وعلو الهمة ٩٥

* الكبرياء والتواضع ٩٩

* الصدق والكذب ١٠٢

مقدمة الناشر

يسر منظمة الاعلام الاسلامي ان تقوم بتقديم هذا الكتاب الصغير الحجم والكبير الفائدة وهو يتناول موضوعاً هاماً ركزت عليه مدرسة الامام الصادق (عليه السلام) ايما تركيز، وجعلته معياراً للايمان وهو موضوع (الاخلاق الحميدة).

وقد قام ببحث هذا الموضوع استاذنا الجليل العلامة زين الدين . وهو من تأصلت فيه المناقبة الاسلامية وربى عليها جيلاً من الواعين . فالى مطالعة الكتاب بدقة وعمق ندعو الاخوة القراء الاعزة .

قسم العلاقات الدولية

منظمة الاعلام الاسلامي

- ١٠٤ الصدق في القول
- ١٠٥ الصدق في العزيمه
- ١٠٥ الاخلاص
- ١٠٥ الصدق في العمل
- ١٠٥ الوفاء

توطئة :

(١)

للبيان حق الايضاح والتصوير، وللفكر سلطة النقد والتحليل، و
 للحق فوق هذا وذاك حكومة عادلة تثير الهدى للبصير، وترغم العادي بالحجة، و
 الكاتب مدين للحق في تفكيره، قبل أن يكون مديناً في تصويره.
 للكاتب ان يتفنن في حديثه ما يشاء له الذوق، وأن يتعمق في بحثه
 ما تسمح به قوة النظر، ولكن عليه قبل ذلك أن يتخذ من الحق دليلاً، ومن
 العلم الصحيح مرشداً، عندما يريد ان يعرض على قرائه عظيم من عظماء
 الانسانية، ومعجزة من معجزات القرون، ولا سيما اذا كان هذا العظيم من
 أمثال جعفر بن محمد الصادق، مثال العقل السامي، والانسانية الكاملة.

ستعترض الباحث في طريقه اسرار، وستقف أمامه شؤون وألغاز،
 يقف دون حلها وقفه الحائر ولعله يرجع عنها رجعة الخاسر، إلا أن يسترشد
 بهدى العلم الصحيح.

أقف عند ملتقى الخطوط من عبقرية الامام جعفر بن محمد فتملكني
 دهشة لم أكن أعهد لها لنفسي، ويكاد اليراع ان يكبو من يدي، وتموت
 الكلمات على شفتي. لم يعودني عليه البيان من قبل، ولم يخني في مثله
 التفكير.

تلك هي مزالق الفكر البشري المحدود اذا اراد ان يسمو الى آفاق غير محدودة، و حيرة المصور حين يلتقي باضواء غير متناهية .

بماذا يحيط الفكر المحدود من هذه الآفاق ليخصه بالتحليل، وماذا يعين المصور من هذه الاضواء المتشابكة ليفرده بالتصوير، أي النواحي من الامام جعفر بن محمد أقدمها للقراء، و أية خاصة منه أتناولها بالبحث، و كل ناحية منه حرية بالبحث و كل خاصة منه جديرة بالتحليل، كل نواحي جعفر بن محمد علم، و كل خواصه إعجاز.

و بعد أمر وأمر اخترت علم الاخلاق موضوعاً لحديثي عن الامام الصادق (ع) و ليس علي أن يرتضي جميع القراء مني هذا الاختيار، مادمت حرأ في الارادة وكانوا احراراً مثلي، و مادام علم الاخلاق من النفائس النادرة في ميراث الامام، و لكل ارادته و اختياره .

الاخلاق: هو العلم الذي يبعث الكمال في النفس البشرية، وينمي القوة والاستقلال في العقل البشري، و هو العلم الذي يساير الانسانية في اتجاهاتها، و يوجهها عند حيرتها، و يأخذ بيد العقل عند اضطرابه، و يمهده بالقوة عند ضعفه، و علم الاخلاق هو الرسالة العامة التي يجب على كل حي مدرك ان يبلغها الى كل حي مدرك، و هو الأمانة الكبيرة التي يجب على كل كائن عاقل ان يؤديها الى كل كائن عاقل .

لهذا ولأمثاله اخترت علم الأخلاق موضوعاً لحديثي عن الامام الصادق (ع) وان لم يكن أجلّ مميزات الامام ولا ابرز خواصه، على أن للامام عناية خاصة بعلم الأخلاق تكفي الباحث حجة على هذا الاختيار، و من أثر هذه العناية أن طابع علم الأخلاق يكاد يظهر على كل كلمة نقلت عن الامام و على كل أثر نسب اليه .

لم أقصد في بحثي هذا ان أتحدث عن الوجهة الخلقية في نفس الامام الصادق (ع) فان هذه الوجهة نفسية تهتم الباحث عن عظمة الامام في

شخصيته، أما الذي يبحث عن عظمة الامام في علمه فعليه أن يتحدث عن علم الأخلاق عنده، وان كانت الوجهة الثانية تكشف عن الأولى في الأكثر.

(٢)

لم يعتمد الامام جعفر بن محمد في أخلاقه على نظرية استفادها من فيلسوف، ولا قاعدة أخذها من حكيم، ولكنه استقاها من ينبوع الوحي و استفادها من هدي القرآن، نعم انه لم ينتسب الى مدارس الفلسفة في أثينا، ولم يخضع لبيوت الحكمة في الهند، ولكن الفلسفة بعض ما تخرج فيه من جامعة القرآن، والحكمة بعض الفروع التي تلقاها في مدرسة أبيه محمد، وإن فتى ثمت شبيبته في بيت محمد، و كملت نفسيته بارشاد محمد، و امتزجت بروحه روحانية كتاب محمد جدير أن يكون غنياً عن فلسفة إفلاطون و حكمة أرسطو و المثالية و معصرات العقول و نسائج الأفكار.

ولعل أثر هذه التربية يظهر جلياً في أحاديث الامام (ع) و أحاديث الأئمة من آبائه و أبنائه، فان الباحث قد يجد الأثر الواحد مروياً عن أكثر من إمام واحد و إذا استقصى في بحثه وجد الحديث بلفظه و معناه مروياً عن جدهم الاكبر (ص) فنه يقتبسون، و اليه ينتهون، كالاشعة من النور، و كالثمرة من الشجرة.

(٣)

الأخلاق إحدى الجهات الانسانية التي عني بها دين الاسلام، و اهتم بها اهتماماً كبيراً، و الذي يستقصي تعاليم الكتاب و إرشادات السنة يعلم مقدار هذا الاهتمام، و مبلغ هذه العناية، و هذه الظاهرة من الدين الاسلامي احدى مميزاته عن سائر الأديان، و احدى مؤهلاته للخلود.

وهي جارية على ما تفرضه جامعة الدين، وجفاء اخلاق المتدينين، يوم غرس بذرته، واذا كان شذوذ الاخلاق ناتجا عن تطرف في الغريزة أو إسفاف في العادة، او قصور في التربية، واذا كانت أمراض الروح أشد فتكاً في معنويات الأمة، وأعظم أثراً في إبعادها عن الخير والسعادة، فجدير بالدين الجامع، و جدير بالمصلح المهذب أن يتكفل إتمام النقص في الأخلاق، ويتبين مواضع الخلل في النفس، ويعالج الخطر في الغريزة الموبوءة ليُكوّن من الفرد عضواً صالحاً لمكانته من الأمة، ويجعل من الأمة مجتمعاً قابلاً للعلم في سبيل الخير.

الاسلام دين فردي اجتماعي وهو في اجتماعيته فردي أيضاً، ينظر الاسلام في سعادة الفرد كما ينظر في سعادة الأمة، ويسعى لتهديب الشخص كما يسعى لتنظيم المجتمع، واذا كان صلاح الأمة مشروطاً بصلاح أفرادها كان اهتمام الدين بسعادة الفرد من ناحيتين:

تهمه سعادة الفرد لأنه ممن يجب إيصاله إلى الكمال.

وتهمه سعادة الفرد لانها شرط في سعادة الأمة. وكلتا هاتين الغايتين يدعوا اليها الدين الجامع. واذن فلا بد للاسلام أن يكون دين اخلاق، ولا بد لقادة الدعوة فيه من بث روح الأخلاق، والامام جعفر بن محمد احد اولئك القادة. وبعض حملة ذلك المصباح.

كلنا نعلم أن الفلسفة الخلقية جزء من التراث القديم، بحث عنها الانسان حين بحث عن أحوال الوجود، وحين علم أن النفس البشرية من أهم أفراد هذا الوجود، وأن أخلاق هذه النفس من أبرز نواحيها، ومن أظهر خواصها، وقد استنفذ هذا البحث كثيراً من جهده، وطويلا من زمانه، حتى أتته النتائج منقادة كما يريد.

ولكن الذي نلاحظه أن العرب في أيامها الاولى لم تكن تسمع عن هذه الفلسفة شيئاً، ولم تلمح منها إلا ظلالاً خفيفة أدركتها بغرائرها... نطق

بها حكماؤها و نظمها شعراؤها، و ان الدين الاسلامي الذي نشأ بين هؤلاء العرب و الذي صدع بتعاليمه محمد العربي الأمي قد تعرض لعلم الاخلاق فيما تعرض له من النواحي، فأسس له نظاماً و قواعد تتمشى مع أدق الموازين في التطبيق، و أشدها إحكاماً في القياس، و اكثرها انسجاماً مع الزمان المختلف و البيئات المختلفة.

نعم تعرض الاسلام لعلم الأخلاق بأساليب وجد العربي الامي فيها ما ادركه بالفطرة، و قرأ فيها الفيلسوف ما اثبتته بالبرهان و أكبر الجميع هذا الشرع الجديد الذي يعضد البرهان بالفطرة و يركز الفطرة على البرهان، و يصلها جميعاً بوحى السماء ليضمن لهما العصمة في الانتاج و الغزارة في المادة. و لعل الوقت يتسع لنا بعد هذا فنبحث الموضوع كما يقتضي العلم أن يبحث، و لعلنا نحاسب الاستاذ أحمد أمين عن نظرتة الى الاخلاق في الاسلام، فان علاقتها باللفظ أشد من علاقتها بالمعنى و الاستاذ حين يتسرع بارسالها يشبه البسطاء الذين يكتفون في معرفة الشيء بظواهره الشكلية.

(٤)

علم الأخلاق حق انساني مشاع، لا يختص بطائفة من البشر دون طائفة، ولا يحتكره فريق دون فريق، و اذا كانت الخاصة هي التي اسست قواعده و شرعت نظامه، فان العامة تشابهها في الحاجة، و تشترك معها في الغاية ما دامت للجميع ملكات يجب تعاهدها بالاصلاح، و غرائز يلزم اخضاعها للتوازن، و ما دامت لهؤلاء و هؤلاء اعمال يحكم عليها بالخير او الشر. و لجمعهم حق في السعادة و نصيب من الخير الأعلى.

ولست اذهب بعيداً حين اقول: حاجة العامة الى علم الاخلاق اكثر فهورهم ألصق، لان الامراض الخلقية في العامة من الناس اكثر شيوعاً، و اعظم تفشياً، و حاجة المريض الى الطب اشد من حاجة الطبيب.

علم الامام الصادق بذلك، وعلم ان لهؤلاء العامة افهاماً لا تقبل المصطلحات الغريبة، ولا تستسغ العبارات البعيدة. فكان لزاماً عليه ان يوضحها لهم على حسب ما يدركون، وان يترجمها لهم بما يفهمون، فكان من ابرع من اوضح، وادق من ترجم، على ان اكثر ما يهتم به المثاليون من قادة الدين هي ناحية التطبيق من علم الأخلاق، لأنها اكثر دخلا في التوجيه الخلقى الذي يهتم به الدين. ولأن الوحي قد كفاهم مؤونة الاستقراء، و اراحهم من عناء البحث والتحصيل.

(٥)

للعلماء الحديث من شيعة اهل البيت (ع) حرص شديد على تدوين ما لأئمتهم من اقوال وارشادات، فهم يجمعون منها كل شاردة و واردة. ما تعلق منها بالفقه الجعفري، و ما تعلق منها بغيره. فكان من نتائج هذا الحرص ان دونت جوامع و جمعت دواوين، و كانت اخلاقيات الامام الصادق (ع) بعض ما دون.

تميزت الشيعة بذلك لالأن نصائح الائمة كانت خاصة بهم، بل لانهم اكثر اهتماماً بأثار أئمتهم، و اذا استثنينا هذه الوجهة فلم تكن الشيعة الا بعض من تجب له النصيحة في رأي الامام (ع) فان حبه للخير و الاصلاح يأبى له ان يمنع النصيحة عن أي احد ينتفع بها. ما لا يخفى ان شيعة لم يبخل الامام بنصيحة على مسلم يوماً، و تعاليمه الخلقية لسفيان بن سعيد الثوري و زملائه الآخرين من رؤساء المذاهب بينة و اوضحه على هذه الدعوى، و هو القائل: «خير الناس من انتفع به الناس» و الراوي عن ابيه النبي (ص): «من لم يهتم بامور المسلمين فليس منهم» و كل ما تتميز به الشيعة من ذلك انهم لتعاليمه اسمع و لأقواله احفظ، و ان الامام هو

المسؤول عن تهذيبهم ، لأنه عميد مذهبهم .

خلف لنا علم الاثر ثروة كبيرة من اخلاقيات الامام الصادق (ع) يجدها الباحث منتشرة في فصول كتب الحديث ، ولا سيما الاخلاقية منها ، و لكنه لم يحفظ لنا كتاباً يختص بأخلاق الامام ، اذا استثنينا (مصباح الشريعة) الكتاب الذي اثار بعض علماء الحديث عاصفة الريب في نسبته الى الامام الصادق ، وكان لهم في امره شكوك وشكوك .

نعم ان علم الحديث لم يحفظ لنا كتاباً يختص بأخلاق الامام الصادق (ع) ولكنه حفظ انا بين طياته درراً من اخلاقه ، و جواهر من عرفانه ، لو اعتنى الباحثون بجمعها لألفوا مجموعة رائعة في العلم

اما كتاب (مصباح الشريعة) فان نسبته الى الامام جعفر بن محمد اخذت دوراً مهماً كانت فيه حديث اهل النقد من علماء الحديث ، وقد انقسموا فيه الى شطرين ، وكل ما اتى به النافون تشكيك وتردد ، ولا يهمننا ان نتعرض

لأثبات هذه النسبة او نفيها ، ولا ان نستعرض ادلة المثبتين وشكوك الناقدين ، فان لهذا النوع من البحث كتباً اخرى ، على ان احاديث الاخلاق والسنن لا تحتاج الى عناية كبيرة في التوثيق ، وقد اعتمد على كتاب (مصباح الشريعة) كثير من علماء الحديث وصححه جماعة من الأثبات ، و هذا كاف في صحة الاعتماد عليه .

سماحاً ايها القارئ ، الكريم : لقد اطلنا بك الوقوف على المنعرجات ، وتشعبت بنا الطرق عن الغاية ، ولا بد للكلام عن هذه النواحي ان يطول ، فلنسر بعد هذا الى غايتنا و كان الله معنا .

محمد أمين زين الدين

(١)

الخلق

كلمة الخلق تستعمل في اللغة على النحية، ومعنى الطبع، أو العادة، أو الدين، أو الرتبة، وقد ذكر الفريدي لكل واحد من هذه المعاني شواهد من لغات العرب وإثباتها. وبين هذه المعاني صلة قوية تكاد نجسها في أمثال واحد، ولعل معنى الكلمة في اللغة واحد وهذه المعاني لغوية وظلاله، ولعل هذا المعنى الواحد في اللغة هو الذي يترجم الخلقيون من هذه الكلمة أيضاً، وإن كانت المعنى اللغوية قاصرة عن إثبات ذلك. والخلقية يعرفون من معنى هذه الكلمة أنها ملكة من ملكات النفس، ويقولون في الخبر من الإنسان من دون إيمان ذكر ويقول بعض اللغويين (أطلق من الأركان) (١) والامام الصادق (ع)

«إن الله ارتضى لكم الاسلام ديناً»

«فأحسنوا صحبته بالسخاء وحسن الخلق»

(الامام الصادق (ع))

يحاول ان يبذل البيان بيان آخر اكثر منه وضوحاً، و اوفى شرحاً، إلا انه لم يفلح في هذه المحاولة فاضطره الغموض الى شرح طويل، ابعده فيه المعرف عن التعريف، و اذا كان يريد من لفظ الصورة: الملكة الكامنة في النفس، و المسخرة للارادة حين العمل لم يكن بين التعريفين مخالفة.

لكل انسان في نفسه صفات كثيرة العدد، متباعدة الآثار؛ كالوفاء، و الصدق، و السخاء، و الشجاعة. و هذه الصفات مصدر لاكثر اعماله، و الخلق من هذه الصفات النفسية هو ما تركز في النفس، و انطبعت به انطباعاً كاملاً.

و العلماء الخلقيون يبحثون في الدرجة الاولى عن هذه الملكات النفسانية من حيث انها تتصف بالاعتدال و الانحراف و تقبل التحوير و التهذيب، اما الاعمال التي يصدرها الانسان باختياره، و التي يحكم عليها العقلاء بالخير او بالشر فيسميها الخلقيون سلوكاً، و يبحثون فيها بحثاً ثانوياً، من حيث انها مظهر خارجي للخلق الكامن، ولان العمل من ناحية اخرى هو المفتاح لتهذيب الصفة النفسية اذا كانت منحرفة، و لانحرافها اذا كانت مستقيمة.

و لذلك فلا يمكننا ان نعتبر العمل الاختياري موضوعاً لعلم الاخلاق، و ان اصر على هذا الرأي الاستاذ احمد امين (*) و اطال في شرحه وايضاحه، لا يمكننا ذلك لان هذا الرأي لا يتفق مع اصول العلم.

موضوع هذا العلم هو (الخلق) و الخلق صفة نفسية و ليست عملاً من الاعمال، و ان كان العمل الاختياري مظهرها الخارجي، و الاستاذ يقيم على هذا التأسيس أشياء اخرى قد نعرض لبعضها فيما يأتي.

(*) و لذلك فهو يفسر نظرية الاسلام الى الاخلاق تفسيراً يتصل بالفقه الاسلامي اكثر من اتصاله بعلم الاخلاق، و يعرف الخلق بأنه عادة الارادة؛ و ينقد الفلسفة القديمة التي تقول: يولد الطفل خلواً من الاخلاق، ثم يكتسب اخلاقه بالتربية. و يرد عليها بأعمال الطفل حين يولد، و يقول اشياء اخرى تتصل بهذا الرأي.

والخلق لا يمكن أن يكون وليد مصادفة، و نتيجة اتفاق، لأن الأخلاق ملكات، ولا بد للملكات من أسس كما لا بد للبناء من قاعدة، و أسس الخلق: الغريزة، و الوراثة، و البيئة، و التربية، و العادة. و الفلاسفة القدماء حين يقولون: «يولد الانسان صحيفة بيضاء يرسم فيها المري ما يشاء» يريدون بذلك أن نفس الطفل مرنة الغرائز، سريعة التأثر و الانطباع باشارات المري و إرشاداته، لأن غرائز الطفل لا تزال بعد في جدتها، لم تسيره الى وجهة خاصة، و لم تكسبه خلقاً معيناً، فهي قابلة للتوجيه، و مستعدة للتهذيب، و اذن فهم يريدون من بياض صحيفة الطفل خلو نفسه من الملكات الخلقية، لا عريها عن الغرائز و الطبائع الموروثة، و المري يكسبها أخلاقاً لا ينشئ فيها غرائز، و هم يقولون هذا في الرد على من يقول: الانسان خير بالطبع، و من يقول: هو شرير بالجملة.

ولنترك الاستاذ أحمد أمين يفسر قولهم هذا بما يشاء ليخطئهم في الرأي، و ليدل على خطأهم بأعمال الغريزة في الانسان حين يولد، لقد فسر على ما اشتبهى، ثم أشكل على ما فسر.

أما قانون الوراثة الذي أشار اليه الاستاذ هنا، و الذي بنى عليه هدم هذه النظرية فلا يدل على أن الطفل يرث من أسلافه أخلاقاً، و كل ما يدل عليه أن الطفل يرث منهم مبادئ اخلاق، و استعداداً في غرائز، و الفلسفة القديمة لا تنكر ذلك، و الشرع و الأدب العربي القديم يعترفان بذلك أيضاً. و تأثير هذه الاسس في تكوين الخلق الانساني ليس على نهج واحد، فان الغرائز تظهر على أشكال ميول و رغبات، و الوراثة تحوير في استعداد الغريزة، و أثر التربية أو البيئة توجيه النفس عند ارادة العمل، و أثر العادة تثبيت الصفة الحادثة و احوالها خلقاً، و اذن فمبادئ الخلق تنحصر في صنفين:

(١) اختياري يفترق وجوده الى ارادة الانسان و اختياره، و من هذا

القسم: العادة؛ وبعض مفردات التربية، والبيئة، كالمدرسة والاصدقاء.
 (٢) اضطراري لاحكومة لارادة الانسان على وجوده وان كانت
 لها حكومة على تأثيره، ومن هذا القسم: الغريزة. والوراثة، والبعض الآخر
 من مفردات البيئة والتربية.

والامام الصادق (ع) يصرح بهذا التقسيم فيقول: (إن الخلق منحة
 يمنحها الله خلقه فنه سجية، ومنه نية) ويفسر لفظ السجية بالجلبة في بقية
 الحديث فيقول: (صاحب السجية هو مجبول لا يستطيع غيره؛ وصاحب النية
 يصبر على الطاعة تصبراً فهو افضلهما)^١ ويقابل السجية بالنية وهي الارادة.
 ومعنى الحديث ان الخلق الحسن منه ما تسوق اليه الجلبة، وتبعث
 اليه الفطرة، وهذا القسم لا يجد الانسان صعوبة في تكوينه، ولا في
 الاستمرار عليه، ومنه ما يكون على خلاف ميول الانسان ورجباته؛ وهذا
 القسم هو الذي يحتاج الى مجاهدة النفس في تكوينه، والى مصابرتها في
 الاستمرار عليه، فهو أفضل القسمين؛ وارجحهما في الميزان.

و اذا وجهنا نظرة فاحصة نحو هذه الاسس رأينا للعادة خاصة لا
 تتمتع اخواتها الاخرى بنظيرها، للعادة ان تستقل في تكوين اي خلق من
 اخلاق الانسان، وليس للغريزة ولا للاسس الاخرى مثل هذا النفوذ و
 الاستقلال، لأن الخلق ملكة، والملكة لا تتكون للنفس إلا بتكرار العمل^٢
 ونتيجة هذا ان جميع الاسس الاخرى محتاجة الى انضمام العادة اليها في
 تكوين الخلق النفسى، وان للعادة سلطاناً على تغيير كل خلق يتصف به

(١) الكافي الحديث ١١ باب حسن الخلق.

(٢) العادة مرونة تحصل للنفس من تكرار العمل حتى تألفه ويسهل عليها ان تأتي به من غير اعمان
 فكرر، ويشترط الاستاذ احمد امين في تكوين العادة وجود ميل نفساني نحو العمل ينضم الى تكراره، ويقول:
 هما امران لا يبد منها في تكون العادة، ولا يكتفي احدهما عن الآخر، ولم يظهر لنا وجه مقبول لهذا الشرط
 الذي يشترطه الاستاذ.

الانسان، وان للعقل سيطرة على تهذيب الغرائز، لان له سلطاناً على تحويل العادات.

والامام الصادق (ع) يقرر هذه النتيجة فيقول: (ما ضعف بدن عما قويت عليه النية) ^١ تهذيب الغرائز النفسية جهاد، وفي الخروج على مؤثرات البيئة و الوراثة عناء وصعوبة، ولكن جميع ذلك سهل على الازادة القوية، ولا خير في الرجل اذا لم يكن قوي الارادة.

ويقول ايضاً: (ان الله ارتضى لكم الاسلام ديناً فاحسنوا صحبته بالسخاء وحسن الخلق) ^٢ الاسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده اكراماً لهم و امتناناً عليهم، به ينجحون في الدنيا، و باتباعه يفلحون في الآخرة، فيجب عليهم ان يجاهدوا الخلق السيء من انفسهم، لان الاقامة على الأخلاق السيئة اساءة لا تلتئم مع قدسيّة الاسلام، هكذا يقول الامام الصادق في حديثه هذا، واذن فهو يرى ان تهذيب الأخلاق ممكن وان كان جهاداً، و على هذا النهج وبمثل هذه النعمة يقول: (من اساء خلقه عذب نفسه) ^٣.

سوء الخلق عذاب يختاره الانسان لنفسه اذا اساء خلقه، وهو جحيم يجب على العاقل ان يتخلص منه، هو عذاب لانه ضعة في النفس و خود في العقل، و هو عذاب لانه نقص في الانسانية، و شذوذ عن التوازن، و هو عذاب يختاره الانسان لنفسه، لانه هو الذي يسعى في تكوينه، و الامام بقوله هذا يحاول أن يجعل من ارادة الانسان سلاحاً ماضياً لكفاح الرذائل و محاربة النقائص.

ومن الخلقين من يرى ان الاخلاق انطباعات نفسية يستحيل عليها التحويل و التهذيب، فليس للعقل عليها اية حكومة، و ليس للارادة على تغييرها اية قدرة، و هذه نظرية مجحفة تهدم بناء السياسات و تلغى فائدة

(١) امالي الصدوق ص ١٩٨ (٢) الكافي الحديث ٤ باب المكارم (٣) امالي الصدوق ص ١٢٤.

التشريع ، و تبطل نظم الأخلاق وهذه النتائج وحدها كافية في ابطال هذا القول .

أما قول الامام الصادق في حديثه المتقدم : (صاحب السجية هو مجبول لا يستطيع غيره) فلا يعني به أن من الاخلاق ما يستحيل عليه التهذيب ؛ وانما يعني أن تكوين الخلق بسبب العادة فقط أكثر صعوبة على الانسان مما إذا تساعدت على انشائه الغريزة والعادة ، فان الارادة إذا صادفت ميلا غريزياً أسرع إلى العمل ، وبتكرار العمل تحصل العادة ، و يتركز الخلق ، وهما عند المكافحة والتهذيب على العكس من ذلك ، لأن تغيير مجرى العادة أسهل بكثير من تعديل مجرى الغريزة .

وطالما سماه الصادقون من أهل البيت (ع) جهاداً وما أحقه بهذه التسمية ، لأن الثبات فيه يستدعي حزم المجاهد وللمناضل فيه أجر المجاهد ، وقد قال أبوهم النبي (ص) لبعض سراياه عند رجوعها من الحرب ، (مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقى عليهم الجهاد الاكبر) . ثم فسر لهم الجهاد الاكبر الذي بقي عليهم بجهاد النفس على أخلاقها ، وقال الامام الصادق (ع) : (و اجعل نفسك عدواً تجاهده) ^٢ وهو يريد بالنفس هنا ملكاتها الوضيعة .

ومن أحق بالمجاهدة من هذا العدو المخادع ، والخضم الألد ، الذي يحمل سلاح الغدر تحت ستار النصيحة ، ويمزج السم القاتل بجلاوة الأمل ، هي عدو داخلي يجب اخضاعه بقوة العدل لحكومة العقل .

(١) الوسائل كتاب الجهاد الحديث الأول من باب وجوب جهاد النفس .

(٢) أصول الكافي الحديث ٧ من باب نواذر الاستلراج .

(٢)

السعادة والخير

«السعادة سبب خير يتمسك به»

«السعيد فيجره الى النجاة»

الامام الصادق (ع)

التشريع ، وتعمل نظم الأخلاق وهذه النتائج وختها كافية في ابطال هذا القول .

أما قول الامام الصادق في حديثه القدم : (صاحب العسل من يحسب ان لا يستطيع غيره) فلا يعني به أن من الاخلاق ما يتحمل عليه الشهيبة ، وانما يعني أن تكرين الملق بسبب العادة فقط أكثر صعوبة على الانسان مما إذا تساعدت على الشهانه الغريزة والعادة ، فان الارادة إذا صادقت ميلا غريزيا تسرعت الى العمل ، ويتكرر العمل فتعمل العادة ، و يتركز الخلق ، و مما عند المكافحة والشهيب على العكس من ذلك ، لأن غير مجرى العادة أسهل بكثير من تعطل مجرى الغريزة .

وطالب ساء العسل من يحسب ان لا يستطيع غيره (٢) ح (١) وما أحقه بهاء النسبة ، لأن القائل يستلزم الجهاد والقتال في أجرة الجهاد ، وقد قال أبوهم النبي (ص) لبعض سراياه عند رجوعها من الحرب ، (مرحبا بفرح تصفوا الجهاد الأصغر وفي عليهم الجهاد الأكبر) ثم فسرتهم الجهاد الأكبر النبي في عليهم بجهاد النفس على أخلاقها ، وقال الامام الصادق (ع) : (واجعل نفسك عدواً مجاهداً) وهو يريد بالنفس هنا ملكاتها الوضيعة .

ومن أحق بالمجاهدة من هذا العدو الخارج ، والحضم الأول ، الذي يحمل سلاح القدر تحت ستار الصبيحة ، ويخرج السهم القاتل بحلاوة الأمل ، من عدو داخل يجب انخاضه بقوة السدال حكومة العقل .

(١) «الستين مرة بسببه عسل»

(٢) «لعمري يا أبا عبد الله»

(٣) «لعمري يا أبا عبد الله»

(٤) الوسائل كتاب الجهاد الحديث الأول من باب جهاد النفس

(٥) أسرار الكافي الحديث ٧ من باب توار الاستعراج

والتساقط لغيره الساقط في الغالبية من شأبهة له في غير تسمى في الغالبية من شأبهة له
 في الغالبية من شأبهة له في الغالبية من شأبهة له في الغالبية من شأبهة له في الغالبية من شأبهة له
 في الغالبية من شأبهة له في الغالبية من شأبهة له في الغالبية من شأبهة له في الغالبية من شأبهة له
 في الغالبية من شأبهة له في الغالبية من شأبهة له في الغالبية من شأبهة له في الغالبية من شأبهة له
 في الغالبية من شأبهة له في الغالبية من شأبهة له في الغالبية من شأبهة له في الغالبية من شأبهة له
 في الغالبية من شأبهة له في الغالبية من شأبهة له في الغالبية من شأبهة له في الغالبية من شأبهة له
 في الغالبية من شأبهة له في الغالبية من شأبهة له في الغالبية من شأبهة له في الغالبية من شأبهة له
 في الغالبية من شأبهة له في الغالبية من شأبهة له في الغالبية من شأبهة له في الغالبية من شأبهة له

(٢)

السعادة والخير

يستطيع الكائن الحي^١ أن يصدر من الاعمال ما يعاكس بها نظام
 الجذب العام، والجماد والنبات لا يقدران على ذلك، يستطيع الحيوان أن
 يتسلق الجبل مثلا، وأن يتنقل حيث تقوده الرغبات وتسوقه المطامع. وماء
 البحر لا يستطيع ذلك من نفسه، ولا يفعله إلا حين يكون مقسوراً، وهذا
 يدلنا على أن للكائن الحي قوة نفسية تميزه بهذه الخاصة عن جميع ما يشاركه
 في الوجود، وهذه القوة النفسية هي الارادة، وقديماً عرف المنطقيون الكائن
 الحي بأنه «المتحرك بالارادة».

وهذه القوة النفسية «الارادة» واحدة في العدد، ونسبتها الى جميع
 الاعمال التي يصدرها الحيوان نسبة متساوية، ولذلك فكان من المستحيل
 على الارادة أن تتوجه الى نقطة معينة من الاعمال اذا لم تعينها نفس ذلك

(١) نريد بالكائن الحي هنا الحيوان في عرف المنطقيين القدماء فلا يعم الأحياء السفلى كالمكروب
 والنبات، وإن أثبت العلم الحديث أنها كائنات حية.

الموجود الحي ، و نتيجة جميع ما تقدم أن للحيوان ارادة تصدر عنها أعماله و تصرفاته ، و أن لهذه الارادة أغراضاً توجهها الى ما تعمل و الى ما تترك ، و بهذا يشترك الانسان مع جميع أفراد الحيوان .

و ينفرد الانسان عنها بأن أغراضه مسبوقة بالتعقل و التدبر، فهو الذي يستطيع أن يعلل و يتفكر، و يقارن بين الأشياء و أصدادها، و يقبس المستقبل بالحاضر فيختار الجيد من الأمور، و المثل من الغايات، أما الحيوان فيسوقه الوهم الى اتباع الغريزة فيما تأمر و ما تحذر، و ليس له وراء الغريزة و الوهم قائد ولا سائق .

توجه الطبيعة غرائز الحيوان و ميوله، فتتبعها ارادته تنفذ ما تأمر، و ليس له اختيار كامل يمكنه أن يستقل به عن أحكام الطبيعة و ميول الغريزة، و الانسان وحده هو الذي يستطيع ذلك، فهو الذي يصدر أحكامه على الغريزة، و يغير أحكام الطبيعة، و يصنع العجائب بارادته و اختياره .

و للانسان نزعة نفسية ثابتة، و هي حب الجودة، فهو يتكلف الجيد من الاعمال و يتحرى الجيد من الغايات، و هو يحاول أن يكون سابقاً في أعماله، و أن يكون جميلاً في كل مظهر من مظاهره، ثم هو يحب المدح و يلتذ لسماعه، و هذا يدلنا على ان الغاية الاولى للانسان هي الكمال المطلق، و ان الجودة التي يتمناها لصفاته، و يتوجه اليها في جميع أعماله إنما هي مظهر من مظاهر هذا الكمال الذي تنتهي اليه جميع غاياته، و ترتبط به جميع مقاصده، و اذا علمنا أن علم الاخلاق يبحث في صفات الانسان، و أعماله و في كيفية تهذيبها، و ارجاعها الى التوازن فقد اتضح لنا أن غاية علم الأخلاق هي إيصال الانسان الى الكمال المطلق في أخلاقه و اعماله، و اذا كان هذا بنفسه تعريف السعادة على ما يقوله بعض الفلاسفة المقدمين كانت النتيجة ان غاية علم الاخلاق هي السعادة للانسان .

«سعادة كل كائن حصوله على كماله الذي قد تمهياً له» بهذا

يحددون معنى السعادة ثم يقولون في تعليقه: ان الوجود على الاطلاق خير، و اذا كان الخير مما يقبل التفاضل بين افراده، كان كمال ذلك الوجود خير ذلك الخير، و اذن فالكمال المطلق الذي يتوجه اليه الانسان في اعماله و صفاته هو «الخير الأعلى»، و هذا هو تعريف السعادة عند ارسطو فالتعريفان يشيران الى معنى واحد، على ان بين السعادة و الخير فرقاً من وجهة اخرى .

و يرى قوم من الفلاسفة: ان الغاية الاولى للانسان من جميع اعماله هي اللذة^١ و قد اخذت هذه النظرية دوراً مهماً بين الفلاسفة المحدثين، و من اهم ما يؤخذ عليها من وجوه النقد .

(١) ان الغاية هي النتيجة التي يهدف اليها العامل و يوصل اليها العمل، و لذلك فيجب ان تكون متأخرة عن العمل في الوجود، و اللذة تصاحب العمل في اكثر الأحيان و تنتهي بانتهائه، فلا يمكن ان تعتبر غاية له .

فمن يتقدم للدفاع عن وطنه، او للجهاد عن دينه، يجد لعمله هذا لذة حين هو يدافع او يجاهد، و لكن هذه اللذة ليست غايته من جهاده او دفاعه لانها تقارنها في الوجود، و غاية الشيء لا تقارنه، ثم هو قد يقتل، و قد يحول دون فوزه في الجهاد حائل فلا تستمر اللذة الى ما بعد العمل فكيف تكون غاية له، و في كثير من الاشياء تكون اللذة حين العمل اشد منها بعد انتهائه .

(٢) وان الانسان قد يصدر أعمالاً بدافع من غريزته قبل ان يعلم ان هذه الاعمال سارة او مؤلمة، و اللذة و الألم شعوران لا يحصلان للنفس الا بعد الاختيار و التجربة .

(١) اللذة شعور نفسي خاص يحصل للانسان عند ارضاء رغبة من رغباته، و هي تكون على قسمين عقلية و جسدية، فارضاء رغبات العقل لذات عقلية، و ارضاء رغبات الجسد لذات جسدية، و يقابلها الألم في جميع ذلك .

فالطفل حين يرتضع ثدي امه لأول مرة، وهو حين يبكي اذا تأخر عنه الرضاع لأول مرة انما يعمل ذلك بدافع من غريزته الى الرضاع او الى البكاء، لا لأنه يجد لذة في الرضاع او يحس بألم في الحرمان، لانه لم يختبر ذلك بعد.

على ان الانصاف يقتضينا ان نعتدل في الحكم على هذه النظرية بالصحة او بالفساد، فهي ليست بمطلقها صحيحة لما قدمناه من الأدلة ولما لم نذكره منها حذراً من الاطالة، وهي ليست بمطلقها فاسدة، لأننا نجد الانسان يصدر بعض اعماله مجرد اللذة ولا يتطلب منها غاية اخرى. واذن فالفعل الذي يعمله الانسان بارادته واختياره يكون على قسمين:

(١) اخلاقي: وهو الذي يكون مظهرأ للخلق الصحيح والذي يكون صدوره بآشارة العقل وارشاده، وهذا هو الذي يجب ان تكون غايته هي الكمال الانساني المطلق، واذ اعقت هذا النوع من العمل لذة فهي شيء آخر يصحب الغاية؛ يتقدم عليها او يقارنها في الوجود.

(٢) غير اخلاقي: وهو الذي لا يعد كذلك، وفي هذا الصنف من العمل الاختياري قد تكون الغاية هي اللذة، وقد تكون الغاية هي الكمال، وقد تكون شيئاً يتوهمه الفاعل كمالاً.

وسواء ثبت ان اللذة بمطلقها خير ام لم يثبت، فلا يسعنا التصديق بان السعادة هي اللذة مادامت السعادة هي الخير الأعلى وكان اكثر اللذات مصحوباً بالالم.

لبعض الفلاسفة ان يجعل الغاية من جميع الاعمال هي اللذة، ولهم ان يختلفوا في تعيين هذه اللذة وتوصيفها، وللاستاذ احمد امين ان يفسر معنى السعادة «باللذة والخلو من الالم» اذا احب ان يختار هذا التفسير على ان يكون ذلك رأياً خاصاً له في معناها، ولكن ليس له ان يجعل ذلك تفسيراً

للسعادة عند جميع الفلاسفة. «١» بلقيس: «نقياً زينةً مبهجةً»
نحن لا ننكر ان من الفلاسفة من يوافق الاستاذ على هذا التفسير، و
لكننا ننكر عليه ان يجعله رأياً للجميع فيقول: «و يعنون بالسعادة اللذة والخلو
من الالم». «٢» ان تعالوا رجلاً له قوة وله مال، فليعلموا بهتاهن من صفات
السعادة هي الخير الأعلى، بهذا تعرفها الخاصة، وهذا ما تفهمه
العامه من معناها أيضاً، و اذا تجدد بين الفريقين اختلاف بعد ذلك فانما هو
في تعيين أفراد الخير الأعلى، فان الخاصة تعرف من الخير الأعلى مثالية سامية،
لا تدركها عقول العامة، و للعامة في تحديده رأي قصير لا تدعن له الخاصة.
تدرك العامة من الخير الأعلى معنى بسيطاً تحده لها أنظار بسيطة،
فترى أن السعادة هي الثروة، و الصحة، و الرفاه، لأنها لا تعرف من الخير
الأعلى غير هذا وما يشبهه، و الخاصة لا ترى في ذلك ما يسمى كمالاً، ولا
تعد الحصول عليه سعادة، إلا اذا كان للسعادة معنى آخر.
و كمال النفس عند هؤلاء ارتقاؤها الى المراتب العقلية الرفيعة، و
استيفاء حظها من الانسانية الكاملة و بين هاتين الطائفتين طبقات متوسطة
تعرف من الكمال و من الخير الأعلى غير ما يعرفه هؤلاء جميعاً فتكون السعادة
عندهم شيئاً آخر.

أما الامام الصادق (ع) فيقول: «دعامة الانسان العقل - و بالعقل
يكمل»^٢ و يقول: «اليقين يوصل العبد الى كل حال سني و مقام عجيب»^٣
و يقول: «إن الايمان أفضل من الاسلام و ان اليقين افضل من الايمان، و ما

(١) قد يطلقون اسم السعادة على ما يوصل الى الخير الاعلى و للفرقة بين المعنيين يسمون هذه
بالسعادة المضافة على حد قولهم بالخير المضاف.

(٢) اصول الكافي الحديث ٢٣ باب العقل والجهل.

(٣) «١٣» جامع السعادات ص ٧١.

من شيء أعز من اليقين»^١ ويقول «إن الله بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا وجعل الهم والحزن في الشك والسخط»^٢. وهذا الرأي هو الذي يقرره المثاليون من الفلاسفة فهم يقولون: الكمال رقي النفس في مراتبها العقلية، والامام يقول (الروح والراحة في اليقين) واليقين أعلى مراتب الحكمة والانسانية الكاملة التي يقولون بها هي الايمان الكامل الذي جعله أفضل من الاسلام ومن مطلق الايمان ولعلك تلمس من لفظ الروح في قوله؛ معنى اللذة في قولهم؛ لأنه يقابله بالهم والحزن وإذن فالكمال في الرأيين بمعنى واحد وحصول ذلك الكمال للانسان هو الخير الأعلى أو السعادة، وقد يكون هذا هو معنى النجاة في قوله (السعادة سبب خير يتمسك به السعيد فيجره الى النجاة)^٣ وإذا أردت ما هو أكثر صراحة في ذلك فهو يقول (إذا منّ الله على العبد جمع له الرغبة في المعروف والقدرة والاذن فهناك تمت السعادة والكرامة)^٤.

للايمان في رأي الامام الصادق طرفان: اعتقاد وعمل. ومرتبة اليقين هذه تأخذ بالاعتقاد الى حد الكمال وتبسط على العمل فضيلة التوازن وبذلك يحصل الايمان الكامل الذي هو أفضل من الاسلام ومن مطلق الايمان، وتم السعادة والكرامة.

ويقول الامام أيضاً (لا ينبغي لمن لم يكن عالماً أن يعد سعيداً)^٥ وكيف ينال السعادة من حرم كمال العلم، وكيف تحصل الانسانية الكاملة لمن يقوده الجهل.

(١) اصول الكافي الحديث الأول باب فضل الايمان على الاسلام.

(٢) اصول الكافي الحديث ٣ باب فضل اليقين.

(٣) احتجاج الطبرسي ص ١٩١، أما لفظ السعادة في الحديث فهي السعادة المضافة لأنه يقول:

هي سبب خير.

٤، ٥، تحف العقول ص ٨٩

الخير

علمنا ان كل تصرف يصدره الانسان باختياره فهو مسبوق بالتفكير في نتائجه وبالموازنة بين الجهات المرجحة لفعله ولتركه. واذن فهنا أشياء نشأتق اليها في نفوسنا وتوسل الى تحصيلها بأعمالنا ونعد الفعل الذي يوصلنا اليها راجحاً. وهنا أشياء أخرى نفرمها بمقتضى طباعنا ونجتنب العمل الذي يؤدي بنا اليها ونعده مرجوحاً. وقد أطلق الخلقون على الاشياء الاولى كلمة الخير وعلى الأشياء الثانية كلمة الشر وهم يحكون على العمل بأنه خير أو شر بملاحظة ما ينتج من الجهات المذكورة، وإن اختلفوا في موازين الخير والشر والمقاييس التي تقاس بها الأشياء ليعلم أنها خير أو شر وقد يوجهنا البحث الى هذه الناحية فيما يأتي :

(الخير هو موضوع جميع الآمال) هكذا يقول أرسطو في تعريف الخير^١. ويقول فيلسوف آخر «الخير ما يتشوقه الجميع» ويقول ثالث «هو ما يقصده الجميع في أعمالهم» وبين هذه التعاريف فروق واضحة إلا أنها تجتمع على الجهة التي ذكرناها.

ولفظ الخير عند الخلقين القدماء يحكي معنيين متناسبين و للترفة بينهما يصفون أحدهما بالخير المطلق والثاني بالخير المضاف، و التعاريف المتقدمة تحدد الخير بمعناه الاول.

و الخير المضاف هو كل وسيلة توصلنا الى الخير المطلق والفارق بينهما هو الفارق بين الوسيلة والغاية، أو بين الغرض الأدنى والغرض الأقصى.

(١) كتاب علم الاخلاق لـ «نيقوماخوس» تعريب الاستاذ احمد لطفي السيد بك ص ١٦٨ من الجزء

قد توصلنا الغاية الى غاية اخرى اسمى منها فتكون الغاية الاولى خيراً مضافاً لأنها اوصلتنا الى الخير المطلق ولنا ان نعتبرها خيراً مطلقاً أيضاً لأنها غاية بعثنا اليها الشوق وتوصلنا الى حصولها بالعمل .

والامام الصادق (ع) يذكر المعنى الاول من الخير فيقول : « جعل الخير كله في بيت ، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا » ويقول « السعادة سبب خير يتمسك به السعيد فيجره الى النجاة »^٢ .
 ويذكر المعنى الثاني فيقول « اذا أردت شيئاً من الخير فلا تؤخره »^٣ و يقول : « افتتحوا نهاركم بخير ، واملوا على حفظتكم في اوله خيراً وفي آخره خيراً^٤ » ويقول : « أحسن من الصدق قائله وخير من الخير فاعله »^٥

(١) اصول الكافي الحديث ٣ باب الزهد (٢) احتجاج الطبرسي ص ١٩١ (٣) أمالي الصدوق ص ٢٢٠ (٤) اصول الكافي الحديث ٣ باب تعجيل الخير (٥) الجزء ١٥ من البحار باب الصدق ولزوم أداء الامانة .

الاعتدال والانحراف

الاعتدال والانحراف
 العرائز قوى فطرية تسوق اليها الحيوان والانس، وتظهر في
 الانسان على اشكال ميول ورغبات، ولذلك فالخلق النفسي مدين في وجوده
 للفرية قبل ان يكون مديناً للعادة (لان الفرية هي الدافع الأول الى العادة
 العمل والعادة هي الدافع الثاني الى تكراره) والفرية تميز الخلق في النفس
 لتسمية العادة، و الفرية تعين الغاية التي ترمو اليها الالادة ثم تتبها
 العادة ويككون الخلق.
 ومن الواضح ان الناس يحفظون في اتباع ميول الفرية فان بعضهم
 يتبها بأفعالها الى حد الاعتراط، وبعضهم يتجاوز عنها الى حد الضرب، فاما
 فكثر العمل من هؤلاء وهؤلاء فليسوا
 العادات اخلاقاً غير مستقيمة.
 وفريق من الناس يتدلون في اتباع هذه الميول فتد الامام الصادق (ع)
 المعتدلة، ويكتسبون منها الاخلاق السيئة ومن الذين يهاون هذه الميول
 لم يجعل في الانسان ليتمها في كل ما تأمر وتنهى، ولو كان الامر كذلك

قد توصلنا الغاية الى غاية اخرى اسمى منها فتكون الغاية الأولى خيراً مضافاً لأنها اوصلتنا الى الخير المطلق ولنا ان نعتبرها خيراً مطلقاً أيضاً لأنها غاية بعثنا اليها الشوق وتوصلنا الى حصولها بالعمل.

والامام الصادق (ع) يذكر المعنى الاول من الخير فيقول (٣٧) الخير كله في بيت، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا ويقول «السلامة خير من سلامة السميد لجره الى الضحاة».

ويذكر المعنى الثاني فيقول «اذا أرمت شيئاً من الخير فلا تؤخره» أو يقول: «افتحوا نهاركم بغيره، واملوا على حفظكم في اوله خيراً وفي آخره خيراً» ويقول: «احسن من الصدق قائمه وخير من الخير فاعله».

فأرخب كماه بالمتد كما

«رَبِّهِ مَا نَالَ مَلَأَهُ نَالَ نَعَم»
«فَتَلَّهَا رَابِعٌ رُبْعٌ مَا نَالَ نَعَم»

(٣٧) قوله (ع) «السلامة خير من سلامة السميد لجره الى الضحاة» (صحيح الطوسي ج ٢ ص ١٩٦) قوله (ع) «افتحوا نهاركم بغيره» (صحيح الطوسي ج ٢ ص ١٩٦)

(٣٨) قوله (ع) «احسن من الصدق قائمه وخير من الخير فاعله» (صحيح الطوسي ج ٢ ص ١٩٦)

(٣٩) قوله (ع) «اذا أرمت شيئاً من الخير فلا تؤخره» (صحيح الطوسي ج ٢ ص ١٩٦)

فإننا نرى في الأفعال العقلية والارادية في الإنسان ما يشبه ما نرى في الحيوانات من الغرائز فطرية تسوق ارادة الحيوان الى العمل ، وتظهر في الإنسان على أشكال ميول ورغبات ، ولذلك فالخلق النفسي مدين في وجوده للغريزة قبل أن يكون مديناً للعادة (لأن الغريزة هي الدافع الأول الى ايجاد العمل. و العادة هي الدافع الثاني الى تكراره) والغريزة تبذر الخلق في النفس لتنمية العادة، والغريزة تعين الغاية التي تتوجه اليها الارادة ثم تتبعها العادة ويتكون الخلق.

(٣)
الاعتدال والانحراف

ومن الواضح أن الناس مختلفون في اتباع ميول الغريزة فان بعضهم يتبعها بأعماله الى حد الافراط ، وبعضهم يتجافى عنها الى حد التفریط ، فاذا تكرر العمل من هؤلاء وهؤلاء نشأت لهم عادات منحرفة واكسبتهم العادات اخلاقا غير مستقيمة .

وفريق من الناس يعتدلون في اتباع هذه الميول فتنشأ لهم العادات المعتدلة، ويكتسبون منها الاخلاق السوية. ومن البين ايضا أن هذه الغرائز لم تجعل في الانسان ليتبعها في كل ما تأمر وتنهى ، ولو كان الامر كذلك لم

يرتفع الانسان عن درجة الحيوان، ولا ليزهد فيها كما يزهد في الشيء التافه؛ لانها اودعت فيه لضرورات يقتضيها بقاءه وبقاء نوعه، واذن فالاعمال التي يتجاوز بها الناس حد الاستواء أعمال غير صالحة، والاخلاق التي يكتسبونها من تكرار هذه الاعمال أخلاق غير صحيحة، واذن فأمرض الاخلاق انحرافات، وصحتها استقامة وتوازن، وبعد الخلق الفاسد عن الصحة بمقدار انحرافه عن التوازن العادل.

ويرى القدماء من علماء الاخلاق أن للانسان قوى أربعاً، يسمونها بالصورة الباطنة للانسان على قياس الصورة الظاهرة وهذه القوى هي قوة العقل، وقوة العمل، وقوة الشهرة، وقوة الغضب. ويقولون: إن هذه القوى هي أصول الاخلاق عليها تفرع، واليها تنتسب فباعتدال كل واحدة من هذه القوى تحصل احدى الفضائل الاربع التي يسمونها أمهات الفضائل او الفضائل الرئيسية، ويقابل كل واحدة من هذه الفضائل رذيلتان تنشآن من انحراف القوة الى طرف الافراط، أو الى حد التفريط. ولا يحصل هذا الشذوذ الا اذا ضعفت سيطرة العقل على القوى وقصر نفوذه عن ادارة الحكم.

يشذ بعض القوى حينذاك ويثور به الطمع ولكنه لا يستطيع أن يصل الى غايته الا اذا استخدم قوة العمل؛ وهو بعد جاهل باسباب النجاح؛ فهو محتاج الى مرشد يمهده الطريق ويرفعه دون غايته الحواجز. وقوة العقل لا تمديداً لمساعدة ظالم ولا تعين مستأثراً على بلوغ اهدافه مهما بلغ بها الضعف؛ ومهما بلغت بذلك المستأثر القوة الا ان يعود العقل حقماً، وينقلب العلم جهلاً. واذن فليس لتلك القوة المتطرفة غير قوة الوهم التي تخلق الحيل وتستنبط الاعذار^٢ فتستعين بها على اخضاع قوة العمل ويتم لها ما تريد.

(١) يقول المتقدمون من الحكماء «للانسان في ادراكاته الجزئية قوى ثلاث:

٢- الواهمة وهي التي يتصور بها المعاني الجزئية. ٢- الخيال وهي التي يدرك بها صور الاشياء

أما العقل فهو يرصد هذه الفوضى بعين الناقد النزيه. يحفز رشده على الوثبة، ويقعده بضعفه عن الاصطدام بقوة لا قبل له بها؛ ثم يلجئه الموقف الى السكوت؛ ولا بد للضعيف ان يخفت صوته امام القوة فتشذ الاخلاق ثم تشذ وتسقط النفس في صفاتها ثم تسقط وتذهب في سقوطها الى حد بعيد.

ولضعف القوى أثر في جفاء الاخلاق؛ وسقوط الملكات لا يقل خطراً عن أثر الافراط في القوة.

يقف بالضعيف شعوره بالنقص، و يقعده عن بلوغ حظه من الكمال. وليت الضعف يقف به عند هذا الحد، ولكن الانصاف غير منتظر من عدو غادر، سيتناهى به الى ابعد حد، ويستولي عليه الشعور بالنقص حتى تأنس به نفسه، وحتى تتوهم ان لها من الضعف قوة، ومن النقص كمالاً وتنطبع الحالة فيها ملكات.

وقد يحصل التوازن العادل في القوى فيتولد منه الاعتدال في الاخلاق والعدالة في النفس، وانما يتكون هذا التوازن اذا عمت سلطة العقل على الغرائز، واذعنت لحكمه جامحات القوى، فيتسلم زمام التدبير، ويستقل بادارة الحكم. وللعقل في تدبير هذه المملكة الصغيرة أنظمة قد يخطئها مدير مملكة واسعة. وليس للعقل وراء هذه القوى والغرائز جنود اخرى يخضع بها الجائر ويهدى بها الثائر، ولكنه بحكمته يضرب بعض القوى ببعض، فيضع الشهوة بالغضب ويكسر الغضب بالشهوة ويستعين على ذلك بنواميس الشرع وتقاليد العرف.

الخاصة ٣- المتخيلة: وهي التي يؤلف بها بين صور الخيال ومعاني الواهمة.

وقوة الوهم هي مزيج من هذه القوى الثلاث وفانبتها وراء هذه الادراكات انشاء الخيل وتمهيد الطرق للحصول على الغايات الخاصة من غير فرق بين الغايات الصحيحة وغيرها؛ ولذلك فهي في سلوكها خاضعة لقانون التوازن والانحراف ايضاً.»

تسكن الفوضى و يثقاد الصعب و يتقوى الضعيف و يتماثل المريض بفضل الحكمة و الارشاد و بتدبير الحاكم المصلح ، و يعم التوازن العادل بين الحاكم و أفراد الرعية فلا طمع ولا استئثار .
هذه هي الحكومة المثالية و العادلة ، و العدالة الخلقية باسمى معانيها و الفضيلة الكبرى التي ترسم للانسان طرق الفضائل الفرعية ، و ذلك هو الدين الذي يقول عنه الامام الصادق (ع) : « من كان عاقلاً كان له دين و من كان له دين دخل الجنة »^١ اجل من كان عاقلاً كان له دين ، و هل الدين غير التوازن في الاخلاق ، و الاعمال و العقائد ؟ و هل العقل الارائد الخير و دليل السعادة ؟

و يقول في كلمة اخرى : (اكمل الناس عقلاً احسنهم خلقاً)^٢ و في كلمة ثالثة : (العقل دليل المؤمن)^٣ على ان الامام الصادق (ع) يجري في تقسيم الاخلاق مجرى آخر . فيرى ان الفضيلة الكبرى هي العقل ، و ان جميع الفضائل الاخرى متفرعة منه يسقيها من ينبوعه و يمدها من حكمته ، و ان الرذيلة الاولى هي الجهل ، و بقية الرذائل فروع منه و لذلك فهو يقول في حديث طويل : (اعرفوا العقل و جنده و الجهل و جنده تهتدوا)^٤ ثم يعد الاخلاق السامية في جنود العقل ، و الصفات الوضيعة في جنود الجهل .

و هو يريد من العقل الكامل الذي لم تخف به كفة التوازن الى حد التفريط ، و لم تتعده الى حد الافراط . و هو الذي يقول عنه في الحديث المتقدم : (من كان عاقلاً كان له دين) ، و في حديث سيأتي : (و هو ما عبد به الرحمن و اكتسب به الجنان)^٥ و يريد من الجهل ما يقابل هذا العقل المتوازن .

(١) الكافي الحديث ٦ كتاب العقل و الجهل (٢) الحديث ٧ من المصدر المذكور (٣) الحديث ٣٤

من المصدر .

(٤) اصول الكافي الحديث ١٤ كتاب العقل و الجهل .

(٥) الحديث ٣ من المصدر المتقدم .

وهذا المسلك شبيه بمسلك (سقراط) في تقسيم الاخلاق وهو أبعد منه عن النقد، وأكثر موافقة للبرهان.

يقول سقراط: الفضيلة الاولى هي العلم، والرذيلة الاولى هي الجهل. ولذلك فقد كان رأيه هذا موضعاً للنقد: لأننا نجد ان بعض الناس يرتكب الاخطاء الخلقية وهو عالم بشناعة ما يرتكب فلم يسقه علمه الى الفضيلة، ولم يردعه عن ارتكاب الرذيلة.

اما الامام فيقول: ان الفضيلة الكبرى هي العقل، ومن البين ان الانسان انما يرتكب الاخطاء الخلقية اذا ضعفت موازنته بين الغايات أو شد به بعض الاخلاق عن التوازن. وهذا لا يكون إلا حين ينحرف العقل عن الاستقامة او يضعف عن الحكومة.

واما النقد الذي يوجهه (ارسطو) لنظرية (سقراط) هذه حين يقول: (ان سقراط جهل او تناسى ان نفس الانسان ليست مركبة من العقل وحده وتخيّل ان كل اعمال الانسان خاضعة لحكم العقل ومن ثم اذا علم العقل فضل العمل، ولكنه نسي ان اكثر أعماله محكومة بالعواطف والشهوات، اذ ذلك قد يقع في الخطأ منها علم العقل).

أقول اما هذا النقد فلا يتوجه الى مسلك التقسيم الذي نقلناه عن الامام الصادق (ع) لانه لا يقول ان نفس الانسان مركبة من العقل وحده ولكنه يقول: للعقل المستقيم سيطرة واسعة يخضع بها العواطف اذا ثارت، ويقود بها الشهوات اذا جمحت ويوازن بها بين القوى اذا تضاربت. ولذلك فالاخلاق المستقيمة مدينة في وجودها للعقل المستقيم، وهي جنود مدربة تناصره على اصلاح الملكات الاخرى.

(اعرفوا العقل وجنده والجهل وجنده تهتدوا)، هذا عنوان لحديث اخلاقي طويل، له روعته وله جماله؛ يميله الامام الصادق على اصحابه ليتهتدوا.

يعرض الامام في حديثه هذا صفتين مستطيلين من الاخلاق يتقابلان كما تتقابل الجيوش المتحاربة. فهما متناقضان في المبادئ ومتزاحمان في المقاصد؛ وهما متماثلان في القوة؛ ومتكافئان في العدد؛ يقف كل واحد منهما لصاحبه بالمرصاد؛ فالصف بازاء الصف، والفرد يقابل الفرد، والهدف يعارض الهدف.

حرب سجال؛ ومعارك دامية؛ وللنفس من ذلك موقف الحائر الوجل المتطلع الى غاية مجهولة بين عدوين عنيدين لا يخضعان لصلح ولا يرغبان في سلم. يريد كل واحد منهما الاستيلاء عليها والاستقلال في حكومتها. هي حرب اهلية متكافئة القوى؛ متماثلة العدد، ومصير النفس موقوف على ظهور الظاهر وظفر الظافر؛ تنتظم الاخلاق الفاضلة في الصف اليمين منها وتقابلها رذائل الملكات الى اليسار ويشاء البيان الغني للامام (ع) ان يسمي اهل اليمين جنود العقل؛ وهو تشبيه رائع؛ ونكتة نادرة.

الاخلاق الفاضلة جنود؛ لانها تطارد الاخلاق الذميمة لتخلص النفس من سيطرتها ونفوذها؛ وهي جنود العقل لانها تنضوي تحت لواء العدل الذي ترفعه حكمة العقل، وهي جنود العقل لان العقل هو المنظم الاول لصفوفها والباعث الاول لروح التعاون بين افرادها.

يعد الامام لنا في حديثه هذا خمسة وسبعين جندياً من انصار العقل يقابلها مثلها من جنود الجهل ثم يقف. ولم ينته به التعداد لانتهاء جنود العقل بذلك؛ ولكنه يذكر الافراد البارزة من قادة الجيش؛ وذوي الشارات الواضحة من امراء الجنود. وعلى هذا الغرار وبمثل هذه الاستعارة الجميلة يقول في صفة المؤمن في حديث آخر: (والعقل امير جنده)^١.

(١) اصول الكافي الحديث الاول من الباب الثاني من نسبة الاسلام.

الانسانية الكاملة

«دعامة الانسان العقل - وبالعقل يكمل»

«وهو دليله ومبصره ومفتاح امره»

الامام الصادق (ع)

يعرض الامام في حديثه هذا صفتين مستعيلتين من الاخلاق يتقاملان
 كما تقابل الحيووس المتحار يتقهما متناقضان في البادئ و متزاجان في
 المقاصد و هما متماثلان في القوة و متكافئان في العدد يقف كل واحد
 منها لصاحبه بالمحصاة فالصنف يازاه الصنف و الفرد يقابل الفرد (٥)

يعارض الهدف في الحرب و معارك دامية و النفس من ذلك موقف الخائر
 الرجل المتطلع الى غاية مجهولة بين عدوين عتيدين لا يظفهم ان يصلح ولا يرغبان
 في سلبهم كل واحد منها الاستيلاء عليها و الاستقلال في حكومتها
 هي حرب اهلية متكافئة القوى و متعائلة الهند و مصير النفس موقف
 على ظهور الظاهر و ظهر الظاهر تنظم الاخلاق الفاضلة في الصنف الجين
 منها و تقابلها دقائق اللغات ال ال اليسار و يشاء اليان الفنى للامام (٥)

تله لهما ا متنا لست كما

الاجلاق الفاضلة جنود و لانها تطارد الاخلاق النجيمة لتخلص
 النفس من سيطرتها و تقودها و هي جنود العقل لانها تنصوي تحت لوام
 العدل الذي ترفعه حكمة العقل و هي جنود العقل لان العقل هو التنظيم الاول
 لصرفها و باعث الاول لروح الصاوين بين افرادها

يعد الامام لنا في حديثه هذا خمسة وستين جندياً من تصار العقل
 يتقابلها مثلها من جنود الجبل ثم يقف في
 ولم ينته به التعداد لانتهاء جنود العقل بذلك و ولكنه يذكر الافراد
 البارزة من قادة الجيش و ذوي الشرات الواضحة من امراء الجنود
 و على هذا الغرار و مثل هذه الاستعارة الجميلة يقول في صيغة المثنى

«الجنون ليقال به - ليقال بالساك تله»
 «في الحديث امر جنود»
 «وهي - ترفع و تصبغ ملياً به»

(٥) لهما لهما

الجنون ليقال به ليقال بالساك تله من لغة الامام

واضافة الحق
 ثانياً فهو فليظن انهما فيسببه في كل ما كان به نالاً ثانياً بقنا
 بل انما به منته نال فيفعال كما ان به رتباً به ان انته ان ملك مية
 ناملاناً ان كان الحق ولفظاً لكانه نالاً بالفعال في خزانة من رتباً
 والضعف والضعف منها فبها فيسبب نالاً في نالاً في نالاً في نالاً
 فبها في نالاً في نالاً في نالاً في نالاً في نالاً في نالاً في نالاً
 في نالاً في نالاً في نالاً في نالاً في نالاً في نالاً في نالاً في نالاً
 في نالاً في نالاً في نالاً في نالاً في نالاً في نالاً في نالاً في نالاً
 في نالاً في نالاً في نالاً في نالاً في نالاً في نالاً في نالاً في نالاً

(٤)

الانسانية الكاملة

فضائل الملكات اوساط ؛ و رذائلها اطراف و انحرافات . هكذا يقول
 (ارسطو) و هكذا تقول مثالية الشرع المقدس و الخلقيون من فلاسفة
 الاسلام .

و الفلاسفة من المحدثين يأخذون على هذه النظرية امورا و يوجهون
 اليها نقودا اهمها مايلي :

النقد الاول : ان معرفة الاوساط الحقيقية تحتاج الى مقياس عام
 تقاس به الملكات و القوى و تعرف به نسبة الاوساط الى الاطراف على ان
 يكون هذا المقياس مضبوطاً يستحيل عليه ان يتخلف و ان ينتقض ؛ ولا
 يوجد عندنا مثل هذا المقياس العام . و جوابه : ان المقياس العام الذي تعرف
 به النسبة هي الانظمة العامة التي يقررها العقلاء فيما بينهم و التي تفرهم
 عليها الشريعة الالهية المعصومة ؛ اما الذين لا يعترفون بالشريعة ولا يذعنون
 لقوانينها ؛ فالمقاييس عندهم تختلف باختلاف التقاليد و العادات و هذا احد
 الجهالات التي تشهد باحتياج الناس الى الدين .

النقد الثاني: ان من الاخلاق ما يسميه العقل فضيلة و يعد السلوك فيه سلوكاً متوازناً وهو ليس من الاوساط كالصدق فان ضده هو الكذب وليس له طرف آخر؛ وكالعدل فانه يقابل الظلم فقط والاشياء لا تكون اوساطاً الا اذا كان لها طرفان تنسب اليهما.

و جوابه: اننا نريد من الاوساط ما يقابل الافراط في القوى او التفريط فيها ولذلك فان فروع القوة المعتدلة تعد من الفضائل وان كانت اطرافا وفروع القوة المنحرفة تحسب من الرذائل وان كانت اوساطا؛ وملكة الصدق فرع من العفة او من الشجاعة وهما قوتان معتدلتان.

اما العدل فقد نعني به ضبط قوة العمل ووضعها تحت ارشاد العقل، وقوة العدل هذه ليست ملكة خاصة الا انها تعم جميع الملكات النفسية المعتدلة والظلم الذي يقابلها هو ارخاء العنان لقوة العمل في كل ما تريد وهو يعم كل ملكة منحرفة. اذن فهو معنى عام شامل وليس ملكة معينة لتقاس اليها ملكات العدل.

وقد نعني بالعدل الانصاف واعطاء الحقوق لأهلها كاملة غير منقوصة وهو بمعناه هذا فرع من فروع العفة او الشجاعة ويقابله من جانب الافراط؛ التعدي على حقوق الناس وفي جانب التفريط؛ اهمال الحقوق المحترمة للنفس. ويحاول الاستاذ محمد احمد جاد المولى (*) ان يجعل الصدق وسطا بين الكذب والمبالغة وهو تكلف في الجواب لان المبالغة نوع من الكذب.

النقد الثالث: ان الفضائل الخلقية في الاكثر لا تكون اوساطاً لان الوسط الحقيقي هو المنتصف والفضائل الخلقية منها ما يقرب من الافراط فان فضيلة الكرم قريبة من السرف وفضيلة الشجاعة قريبة من التهور ومن الفضائل ما يقرب من التفريط كالحلم والتواضع فانها قريبان من الجبن

واضاعة الحقوق.

و جوابه : ان الوسط ليس نقطة معينة بنسب بعدها الى الطرفين على السواء لنحكم عليه بأنه المنتصف ، ولذلك فانا نحكم على الفضائل بالشدة والضعف ؛ والضعيف منها نعدّه فضيلة و ان كان ضعيفا لانه معتدل ؛ و نتيجة هذا ان الكرم اذا نسبنا ارقى مراتبه الى الاسراف و التبذير ثم نسبتنا ادنى مراتبه الى البخل لم نجد احد البعدين أكثر من الآخر و مثله الشجاعة اذا اضعفناها الى الجبن و التهور.

النقد الرابع : اذا كان الميزان في عدّ الخلق فضيلة هو التوسط ، و جب ان يكون التوسط في الفضيلة أسمى منزلة عند علماء الأخلاق من الترتيقي فيها ، لأن التوسط فيها أقرب الى الاعتدال الصحيح و أبعد من طرفي الانحراف و هذه النتيجة لا يرتضيها علماء الأخلاق .

و جوابه : ان الوسط مجموعة نقاط معينة نسبها الى الطرفين بنسبة واحدة و معنى هذا ان جميع هذه النقاط توسط في القوة و اعتدال فيها و يكون ارتفاع النفس في هذه المراتب رقياً في درجات الكمال .

و قد تبسطنا في التحدث عن هذه النظرية لأنها قد اخذت دوراً مهماً من الجرح و التعديل عند الخلقين ولأنها هي النظرية السديدة التي يحكم بها العقل و يقرها الشرع .

والامام الصادق (ع) يذكرها فيقول : (و اعلم ان لكل شيء حداً . فان جاوزه كان سرفاً ، و ان قصر عنه كان عجزاً)^(١).

الاعتدال في قوة الغضب شجاعة و التطرف فيها جن أوتهور ، و التوازن في قوة الشهوة عفة ، و الانحراف فيها شراهة أو خود ، و لكل من هذه الملكات فروع كثيرة .

و ليس الحكم بالانحراف و الاستقامة مختصاً بالشهوة و الغضب بل

هو حكم عام لجميع القوى ونظام شامل لجميع الاشياء على ما يقوله الحديث المتقدم وإذا كان للانسان جهة تميزه فلانه الكائن الوحيد الذي يستطيع ان يرسم لنفسه طريق التوازن، وأن يصل بعمله الى السعادة والخير الأعلى.

والعقل نفسه أحد الخاضعين لهذا الحكم، فانه أطوع من يذعن للحق، وأساس من ينقاد للنظام العادل.

فقد تخف بالعقل كفة التوازن فيكون حقاً، وقد يتجاوز الاستقامة فيكون خداعاً أو حكمة باطلة، وكلا الطرفين شذوذ عقلي ورذيلة خلقية، وقد يتوازن فيكون حكمة ودليلاً على الخير والهدى.

ويقول الامام الصادق (ع) في صفة العقل المستقيم، هو (ما عبد به الرحمن و اكتسب به الجنان)^١ ويقول أيضاً (العقل دليل الأمن)^٢ أما الحكمة الباطلة فانه يسميها بالشيطنة النكراء حين يسأله بعض أصحابه عن عقل معاوية فيقول (ع): (تلك النكراء تلك الشيطنة وهي شبيهة بالعقل^٣ وان الحكمة الباطلة شيطنة نكراء، لانها خداع يشبه الحكمة، وباطل يشبه الحق، وهي نكراء لانها تعاند الفضيلة المحبوبة).

ثم هو يقول في الرذيلة الثانية: (ما خلق الله شيئاً أبغض اليه من الاحق لأنه سلبه أحب الاشياء اليه وهو العقل^٤).

ويقول ايضاً: (لا يفلح من لا يعقل^٥).

أما قوة العمل فهي الخاضع الأول لارشاد العقل وباستقامتها يحصل التوازن العام لجميع الملكات لأننا قد علمنا ان ايجاد الأعمال من

(١) اصول الكافي الحديث الثالث من كتاب العقل والجهل.

(٢) الحديث ٣٤ من المصدر المذكور.

(٣) اصول الكافي الحديث الثالث من كتاب العقل والجهل.

(٤) علل الشرائع للصدوق ص ٤٥.

(٥) الكافي الحديث ٢٩ من كتاب العقل والجهل.

مختصات هذه القوة، وليس في استطاعة القوى الأخرى أن تصل الى غاياتها اذا لم تعنها قوة العمل .

فاذا خضعت هذه القوة لحكم العقل و اتبعت رشده و هداه كانت أرفع من أن يؤثر فيها خداع الوهم ، أو تغمرها صولة الغضب ، أو تأسرها لذادة الشهوة لان الذي يتبع العقل لا يخفل بالأوهام والأحلام .

ستندحر أمامها قوة الغضب ، و سلطان الشهوة و يستمر الاندحار عليهما في كل معركة ، و يتصل الانهزام في كل نضال و سيخضعان راغمين لحكومة العقل ، و يذعنان لقوة العدل . فالتوازن في جميع ملكات النفس نتيجة للتوازن العادل في قوة العمل ، والانحراف في تلك نتيجة التطرف في هذه و ليس لقوة العمل ملكة خلفية خاصة تنفرد بها ، الا أن الأخلاق الفرعية لجميع القوى انما تتكون بمعونتها ، وإرادة الانسان هي المحرك لهذه القوة فان من الاعمال ما يصدره الانسان مقسوراً عليه كالتنفس و ضربات القلب ، و من الاعمال ما يصدره بارادته و اختياره ، و قد علمنا أن هذا الأخير هو العمل الذي نحكم عليه بالخير أو الشر ، و هو السلوك الذي يعتبره الخلق أثراً للصفات النفسانية ، و هو العمل الذي تتكون العادة بتكراره و يتكون الخلق باعتياده .

و لسنا بصدد بيان عناصر الارادة في الانسان ، فان لها بحثاً نفسياً خاصاً بها ، و لا يهمننا أيضاً أن نتعرض للبحث في كون الارادة حرة أو مسخرة فان له موضعاً آخر . و قد اثبت فريق من الفلاسفة و علماء الكلام لارادة الانسان الحرية الكاملة في العمل ، و نفى حريتها جماعة آخرون منهم ، و الامام الصادق (ع) ممن يعتدل في ذلك فيقول : (لا جبر ولا تفويض ولكن أمرين امرين^١) .

أما هؤلاء الذين يقولون : ان الانسان مجبور في كل ما يعمل و ان

(١) الكافي الحديث ١٣ باب الجبر والقدر .

ارادته مسخرة لما ينفذه القضاء فانهم ينكرون محسوسا ويحسدون واضحاو
يكفي لابطال هذا الرأي أنه يلغي فائدة علم الأخلاق ويبطل بشريع القوانين
للحد من الجرائم وفرض العقوبات على المجرمين .

ارادة الانسان هي المحرك الاول لقوة العمل ، وبقوة هذه الارادة
تكافح الغرائز الشاذة وتصطدم الميول المتطرفة ، وبقوة الارادة تبتدىء
الفضيلة ، ويتم التوازن . وقد سمعنا قول الامام الصادق (ع) : (ما ضعف
بدن عما قويت عليه النية)^١

الارادة عزيمة في الانسان يوجد بها ما يروم ويدفع بها ما يكره ولها
بسائر القوى الانسانية أسوء فهي تتصف بالقوة والضعف ، وقوى الارادة .
هو الانسان العظيم الذي يأتي بالعجاب ، ويفعل ما يشبه المعجزات ، إذا
احسن توجيه ارادته الى اعمال الخير ومحاسن الصفات ، أما اذا توجه بها الى
اعمال الشرفانه يجر على نفسه نقصا آخرلا يقل خطراً عن ضعف الارادة .
والعلماء النفسانيون يذكرون لتقوية الارادة شروطا ويدرجونها في عدد من
النصائح :

«١» عين هدفك الاول قبل ان تبدأ بالعمل ثم لا تتردد بعد ذلك فان
التردد يضعف الارادة .

«٢» : لا تضع وقتك في ايجاد اعمال قليلة النفع ، أو ما تكون
نتيجته ذهاب الوقت فقط فان الوقت - كما يقولون - من ذهب .

«٣» ثق بأنك قادر على الوصول الى ما تريد ، فان الثقة بالنفس
تحفف عنك جهد العمل وتقطع لك نصف المسافة .

«٤» ثابر على العمل واتقنه وان كان شاقا فان الفوز نتيجة المثابرة
والا تقان .

«٥» عاود العمل بنشاط أكثر اذا أخفقت في عملك . فان الصعب

يسهل ، والفقدة تحل .

«٦» اجعل نصيبا من منهابك اليومي للعمل فان النفس يجهداها

العمل المتواصل .

هكذا تنمو الارادة وتسمو، والرجل العظيم وليد ارادته واعماله .
 كمال قوة العقل هي الحكمة النظرية والعملية بأرقى مراتبها و
 كمال قوة العمل سلوكها على النظام العقلي الرشيد، وقد يصل الانسان في
 هاتين القوتين الى حد كمالهما فيسميه الخلقون بالانسان الكامل ويصفون
 انسانيته بالانسانية الكاملة، والامام الصادق (ع) في عداد من يصفه بهذا
 الوصف فهو يقول: «دعامة الانسان العقل - وبالعقل يكمل»^١

ولنستمع الى بقية هذا الحديث فان الامام يوضح فيه معنى
 الانسانية الكاملة عنده فهو يقول: «فاذا كان تأييد عقله من النور كان
 عالما، حافظا، ذاكرأ، فطنا، فهما، فعلم بذلك كيف، ولم . وحيث، وعرف
 من نصحه، ومن غشه، فاذا عرف ذلك عرف مجراه ومحصوله ومفصوله، و
 اخلص الوحدانية والاقرار بالطاعة»، هذا هو حد الكمال في قوة العقل، و
 هذه هي الحكمة التي يقول الفلاسفة في معناها: «هي معرفة حقائق
 الموجودات» وأعلى مراتبها هو اليقين الذي يعرف فيه الانسان مجراه و
 موصوله ومفصوله، والذي يكون اثره الاخلاص في الوحدانية والاقرار
 بالطاعة والذي قال فيه في كلمة سابقة (اليقين يوصل العبد الى كل حال
 سني ومقام عجيب)^٢ .

أما الكمال في قوة العمل فقد أتم الامام به حديثه المتقدم فقال:
 «فاذا فعل ذلك كان مستدركا لما فات وواردا على ما هوأت» .

يقول الخلقون القدماء . للعقل جهتان جهة نظرية . وجهة عملية

(١) الكافي الحديث ٢٣ باب العقل والجهل .

(٢) جامع السعادات ص ٧١ .

(٥)

الضمير

يتألف الانسان من جزئين متباينين، هما يتم تركيبة ومنها تتكون
قواه وعناصره، ومنها تصدر افعاله وافكاره وبمجموعها يدرك قسمة من
الحياة ويقال حظه من الرزق والكمال وهذا الجزء انهما النفس والجسد
جزءان متباينان اتفقا فكانا مزيجاً عجيباً يحمل خواص الطبيعة و
آثارها والطبيعة، واصبحت بعد اتلافها شيئاً واحداً يدرك باذراك واحد.
والذي بهما انتمج الاتصال قد اتفاد هذين الجزئين قدرة كاملة لا
يستعان بتطویرها لو كانا منفردين.

«ان للقلب أذنين، فاذا هم العبد بذنب قال له»

«روح الايمان لا تفعل، وقال له الشيطان افعل»

الامام الصادق (ع) عن صفات الجسد، ويتكون ذلك
بالذات الزايفة التي تحصل من الشهوات البهيمية، وقد تكون من صفات
النفس ويشلون لها بالكالات النفسية التي تحصل للانسان من اكتساب

فإذا حصلت له الاستفادة واستغل بالحكومة عن القوى التي من حبه
 لأجل حسن الفكر وجوده الأكبر والفر من ناحية الثابت القطعة وحسن
 التراب، وانتمناج هذه الفرات ينتج له حسن التهم وجوده لهذا (٥)
 لإمام الفقيه (ع) يتدرج مع هذا الاصطلاح ويقرر هذه النتائج في حده
 القديم

بمبغا

«ما رآه منكم بمبغا به اذلة من ربياً بملقلا تا»
 «رابعاً بالاحيشا ما رآه در اعدا كا تاو كا و»
 (و) رابعاً وادكا

تتألف الانسان من جزئين متباينين ، بهما يتم تركيبه ومنها تتكون قواه وعناصره ، و عنهما تصدر أفعاله وأفكاره وبمجموعها يدرك قسطه من الحياة وينال حظه من الرقي والكمال و هذان الجزءان هما النفس والجسد .

(٥)

الضمير

يتألف الانسان من جزئين متباينين ، بهما يتم تركيبه ومنها تتكون قواه وعناصره ، و عنهما تصدر أفعاله وأفكاره وبمجموعها يدرك قسطه من الحياة وينال حظه من الرقي والكمال و هذان الجزءان هما النفس والجسد .

جزءان متباعدان اثتلفا فكانا مزيجا عجيباً يحمل خواص الطبيعة و آثار ماورا الطبيعة ، و اصبحا بعد اثتلافهما شيئاً واحداً يدرك بادراك واحد .

والذي يهمننا ان نجد الاتصال قد أفاد هذين الجزئين قدرة كاملة لا يتمتعان بنظيرها لو كانا منفردين .

للنفس أهداف لا تصل اليها اذا لم تتصل بالجسد ، وللجسد غايات لا يبلغها إلا بمعونة النفس ، و يقول علماء الاخلاق : ان الاهداف التي يتوجه اليها في سلوكه ومعاملاته قد تكون من مختصات الجسد ، ويمثلون لذلك بالذات الزائفة التي تحصل من الشهوات البهيمية ، وقد تكون من مختصات النفس ويمثلون لها بالكمالات النفسية التي تحصل للانسان من اكتساب

العلوم و اللذات العقلية التي تنشأ من اكتشاف الحفيات من الاشياء ، وقد تكون مما يشترك فيه كل واحد من النفس والجسد على السواء او على التفاضل ، ولكل واحد من هذه الاقسام امثلة يذكرونها في كتبهم ، و قياس الالم في ذلك قياس اللذة .

والانسان انسان بنفسه لا بجسده لان جميع افراد الحيوان تشاركه في هذه الناحية ، و محافظته على انسانيته بمقدار محافظته على معنويات نفسه ، و سموه في انسانيته بمقدار حرصه على اتماء مداركه و استثمار مواهبه .

خلق الجسد ليكون آلة مسلوبة الارادة بيد النفس ، توجهه حيث تشاء و تصرفه كيف تريد ، و استقامة الانسان في شيمه و اخلاقه ، و رقيه في درجات الانسانية لا يحصل الا بذلك فان عدالة العقل الحاكم على النفس والمدبر لسلوكها تمتع النفس عن الاستئثار بحقوق الجسد او اعطائه اكثر مما يستحق .

اما اذا انعكس الامر واصبحت النفس آلة مسخرة للجسد يستعبد لها لتحقيق ميوله و نيل اوطاره ، فهناك الشقاء الدائم والخسران العظيم لان العقل اصبح معزول الحكومة مردود الرأي .

والفلاسفة المتقدمون يقولون في صفة النفس حين يريدون تعريفها : «هي جوهر ملكوتي يستخدم البدن في حاجاته» و يقولون : ان هذا الجوهر الملكوتي الواحد يظهر بمجالي متعددة متفاوتة ، و بالنظر الى كل واحد من هذه المجالي يطلقون عليه اسماً خاصاً فيسمونه عقلاً من حيث انه يدرك الامور الكلية المعقولة ، و يسمونه روحاً لان به حياة الجسد و نموه ، و يسمونه قلباً لانه يتقلب بما يحظر فيه من الخواطر . والامام الصادق عليه السلام قد يجري مع هذا الاصطلاح الى حد قريب فيقول : «اجعل قلبك قرينا برا او ولدا و اصلاً»^١ فيسمي النفس قلباً لما فيه من الخواطر ثم يجعله قرينا برا يجب اتباع

(١) الكافي الحديث الاول باب نواذر الاستدراج .

نصحه في الخواطر الحسنة وولدا بارا يجب ارشاده . عند الخواطر السيئة . وقد يجري مع الاصطلاح الى حد ابعد من ذلك فيقول : «من لم يكن له واعظ من قلبه وزاجر من نفسه ولم يكن له قرين مرشد استمكن عدوه من عنقه»^١ .

اما هذه الخاطرات التي تحدث في النفس والتي باعتبارها سماها الخلقبون قلبا فهي افكار تعترض النفس اذا توجهت الى عمل من الاعمال تحثها على ايجاده او تحذرهما من فعله فاذا كانت هذه الخاطرة تدعو الى الخير او تحذر عن الشر سميت «الهاماً» وان كانت على العكس من ذلك سميت «وسوسة» .

و مصدر هذه الالهام قوة خفية في النفس يشعر بها الانسان جليا عند مباشرة عمل يرضي به عاطفته او عقله أو عمل يغضبها ، والمتأخرون من علماء الاخلاق يسمون هذه القوة «بالوجدان» و «الضمير» ويصفها بعض ارباب الفلسفة الحديثة «بصوت الله في الانسان» و يسميها الامام الصادق عليه السلام روح الايمان بقوله : «ان للقلب اذنين روح الايمان يساره بالخير، والشيطان يساره بالشر، فايهما ظهر على صاحبه غلبه»^٢ و سأله بعض اصحابه عن روح الايمان هذا فقال : «اما رأيت الانسان يهيم بالشيء فيعرض بنفسه الشيء يزرجه عن ذلك وينهاه قال نعم ، قال : هو ذاك»^٣ .

الضمير واعظ القلب كما سماه في حديثه السابق ، و هو روح الايمان كما يسميه في قوله هذا و هو احدى الغرائز التي نشأت مع الانسان منذ يومه الاول و تدرجت معه في عصوره ، و تطورت معه في تطور احواله و غرائزه .

و يدلنا على هذا انا نجد الضمير لا يختص بأمة دون أمة أخرى ، فالضمير يوجد عند الامم المتوحشة التي لم تخضع لقانون ولم تعترف بنظام كما

(١) امالي الصدوق ص ٦٥ .

(٢) الجزء الخامس عشر من البحار باب روح الايمان .

(٣) المصدر المتقدم .

يوجد بين الامم الراقية التي تشرع القوانين وتتعرف بالانظمة ، و بذرة الضمير
توجد عند الصبي الناشئ وعند الطفل الدارج ولعل جرثومة الضمير توجد
في قسم من الحيوانات العجاء على ما يقوله بعض علماء الحيوان .
وللضمير قوتان متقابلتان يشعر الانسان بوجودهما قبل العمل و
بعده .

قد يتوجه الانسان الى عمل يرضي به عاطفته مثلا ولكنه يغضب
عقله فيرى نفسه حينذاك بين قوتين متقابلتين تحته احدهما على العمل و
تحذره الاخرى منه ، وتفاضل هاتان القوتان بمقدار ما في الانسان من ميل
الى الخير او الى الشر ، وبمقدار ماله من التمسك بالصفات الحسنة او القبيحة ،
وقد تكون القوتان متكافئتين اذا تساوت ميوله .

فاذا ابتدأ في انجاز العمل استمرت القوة الموافقة على الحث و
التشجيع ، وخفت صوت القوة المعارضة ولكن سكوتها يكون الى حين ، و
اذا اتم العمل شعر بتأنيب شديد من الناحية المكبوتة وخفت صوت الناحية
المنتصرة .

و اما اذا ترك ذلك العمل ارضاء لعقله واجابة لوجدانه فانه يشعر
بتأنيب قليل من ناحية العاطفة المكبوتة وبارتياع عظيم من الناحية الثانية و
لذلك فلا يمكننا ان نصدق ان الضمير هو العقل العملي كما يراه الفيلسوف
الاماني كانت^١ لان العقل العملي خاضع لحكومة العقل النظري ، ووظيفته
ترتيب الاعمال على درجاتها ، واعطاء كل عمل منها مكانه الذي يليق به
واذن فالعقل العملي يدعو الى الخير فقط ، فلا يسعنا ان نجعله تفسيرا للضمير .
والنظرات المتقدمة توضح لنا ان (الضمير) شؤوننا وآثارا . فآثره قبل
العسل حث او تحذير ، و بعد حصول العمل ارتياح او تأنيب ومعنى هذا ان
صوت هذه القوة لا يختص في حال حصول الرغبة او في حالة انقماعها ، و

(١) الخلق الكامل محمد احمد جاد المولى ص ٣١٤ من الجزء الثاني .

يقول بعضهم: الوجدان والوسواس صوت رغبات مقموعة^١، ولم يظهر لنا سر هذه الصفة التي يذكرها، على انا نعرف بأن صوت الوجدان يكون أشد ظهوراً عند انقمام الرغبة التي يدعو إليها.

وانكر جماعة من الخلقين كون الضمير غريزة من الغرائز، وقالوا هو قوة يكتسبها الانسان اكتساباً، و للتجربة والاختبار والتقاليد والعادات اثر كبير في تكونه، ويدلون على مذهبهم هذا بوجوه أهمها ما يأتي:

١- ان القوانين والأنظمة الوضعية هي الحافظة للضمير من التداعي والانهيار، ودليل هذا أننا لو رفعنا سلطان القوانين الخلقية والاجتماعية والدينية عن اية امة من الامم لوجدنا ان الحال فيها ينقلب رأساً على عقب، وان أسس الضمائر الخلقية فيها تتداعى وتنهار، وهذا يدلنا على ان الضمير تابع لهذه الأنظمة بوجودها و يفنى بفنائها.

و جوابه ان الضمير قوة بسيطة تتقوى بالتمرين، والحافظة على الواجبات و اتباع الانظمة، حتى تسيطر على جميع القوى: و تحكم على الغرائز، و تضعف بالمخالفة والاهمال حتى يخفت الصوت ويموت الضمير، و نعي بموت الضمير انعدام اثر هذه القوة لا انعدام وجودها فان الضمير اذا تتابعت عليه الصدمات والمخالفات يخفت صوته، فلا يبعث الى فعل خير، ولا يحذر من عمل شر، وهذا ما نسميه بموت الضمير اما جرثومة هذه القوة فلا تزال باقية في الانسان مادام باقيا في الحياة، و يمكن أن تعود الى حيز العمل يوماً ما اذا ما تعاهدها صاحبها بالتمرين والتقوية مرة اخرى.

٢- نجد الناس مختلفين في ضمائرهم، فالشيء الواحد يكون حسناً عند أمة من الامم و هو بنفسه يعد قبيحاً عند أمة اخرى. وهذا يدلنا على ان السبب هو الاختلاف في العادات والتقاليد والازمنة و ما اشبهها.

و جوابه ان الضمير قوة تحث على الخير و تحذر عن الشر، اما تمييز

(١) قول ينقله الاستاذ احمد امين في هامش اخلاقه.

الخير من الشر، والمقياس الذي يقاس به العمل ليعلم انه خير أو شر فهو شيء آخر وراء الضمير، وليس الضمير معصوما في حكمه فهو يحث الانسان على ما يعتقد انه خير و يحذره عما يعتقد أنه شر، ثم لا يجاسبه عن مصدر هذا الاعتقاد فقد يكون مصدره مادة سخيقة او تقليدا باطلا .

و حكم الوجدان يتعدى اعمال الشخص نفسه الى اعمال الغير فهو يكبر كل عمل يعتقد انه خير، و يحتقر كل عمل يعتقد انه شر، وان كان من اعمال الغير. و ترحيب الضمير بذلك العمل او تحذيره عنه يتفاوت بحسب ما يعتقد فيه من جهات الخير او الشر، و بحسب شدة ذلك الاعتقاد وضعفه و بمقدار تمسك الشخص بالمثل الاعلى في اخلاقه، و لذلك نرى التفاوت العظيم بين الناس في ضمائرهم .

و اذا كان الانسان الكامل هو الذي يستمد رشده من العقل، و اذا كانت قوة الوجدان بمقدار محافظة الانسان على عمل الخير في سلوكه و معاملاته كانت نتيجة هذا ان الوجدان الكامل والضمير عند هذه الطبقة من الناس قوة واحدة و ليس لها إلا صوت واحد فهو لا يعرف الا الحق و هو لا يأمر إلا بالخير فان الصوت الآخر من هذه الغريزة قد أماته كبت الميول و تحديد الشهوات .

والوجدان هو المبدأ الاول للتوبة و التكفير عن الخطايا لان الضمير إذا شعر بالخطيئة، و تبين عظم الذنب وجه الى النفس لواذع من التأنيب و قوارص من العتاب و التوبيخ، و قد يتأثر الانسان من ذلك فيندم و هذا الندم هو التوبة في مرحلتها الاولى. و كم للضمير الفاضل من يديضاء على الانسان في تهذيب نفسه، و الاخذ بيده الى سبيل النجاح و تسديده في ما يعمل و ما يقول، و يعلق الخلقيون المتأخرون على الضمير اشياء كثيرة يترامى بها العد، و يطول فيها الكلام .

والضمير محترم عند الانسان فقد يرتكب الرجل اخطاء و جدانية و

مصدرها قصور في التفكير، او تسرع في الحكم الا انه لا يقبل من الناصح ان يتهم ضميره بالخيانة وقد لا يصغي الى ارشاده بعد هذه التهمة، لان الضمير محترم عند الانسان و من الخزم للمرشد في امثال ذلك ان يدلّه على وجه الخير فقط من غير ان يتعرض لكرامة الضمير.

الفضائل الفرعية

«من ملك نفسه اذا رغب واذا رهب، واذا اشتى»

«واذا غضب. حرم الله جسده على النار»

(الامام الصادق)

انما وجه التماثل بين الحق كما قاله تعالى في قوله تعالى انما وجدنا المرء على فطرته
 ابيسفاً نكالا، فبعد ما عرفت ان الحق هو الله تعالى الذي خلق الانسان على فطرته
 يوقظها لله، وانما خلقه على الفطرة التي هي في الانسان من فطرته التي هي في
 خلقه يكون مصيره إما سبيطاً او قبيحاً، فبمطلقاً فما لم يكن في فطرته نافية له
 وحكم الوجدان يقتضي اتصال الشخص نفسه الى اتصال الغير فهو
 يكره كل عمل يعتقد انه خير، ويحظر كل عمل يعتقد انه شر، وان كان من
 اتصال الغير وترحيب الضمير بذلك العمل او تحريمه عنه بظاوت بحسب ما
 يعتقد فيه من جهات الخير او الشر، وبحسب شدة ذلك الاعتقاد وضعفه او
 مقدار استتار الشخص بالكل الامن في اخلاقه، ولذلك ترى الظاوت العظيم
 بين الناس في مسائلهم.

وانما كمال الوجدان الكامل هو الذي يستمد رشده من العقل، واذا
 كانت قوة الوجدان تستمد من مشاهدة الانسان على عمل الخير في سلوكه و
 صلواته كانت تسمية هذا هو الوجدان الكامل والضمير عند هذه الطبقة من
 الناس قوة واحدة وليس فيها الا صوت واحد فهو لا يعرف الا الحق وهو
 لا يسمع الا ما خير من الصوت الاخر من هذه الفريضة قد آتاه كبت اليول و
 تبيد الشهوات.

والوجدان هو المبدأ الاول للتوبة والتكفير عن الخطايا لان الضمير
 اذا ضمير خاطية، وتبين عظم الذنب وحده الى النفس او اخ من التائب و
 لوازم من العتاب والشوبخ، وقد يتأثر الانسان من ذلك فيندم وهذا
 الندم هو التوبة في مرحلتها الاولى، وكم للضمير القاضل من يدورضاه على الانسان
 في تهابت نفسه، والاخذ بيده الى حبل النجاح وتسيده في ما يعمل وما
 يقول، ويقطع الخلقوة القامرون عن الضمير اشياء كثيرة يترام بها العبد،
 ويطول فيها الكلام.

والضمير محترم عند الانسان فقد يرتكب الرجل الخطاء وجدانية و

الفضائل الفرعية

علمنا ان الخلق الكرم من كل قوة هو التوسط فيها، وان الافراط في تلك القوة والتعريط فيها وفيما كانا مختلفين تملان على عدم تلك النفسية، واما ان نفسان يحاولان عند تلك الباب الموصل الى الخير والشر الى طريق السعادة، ولا يستطيع الانسان ان يستمر في خلقه الكرم الا بمطابقة هذين العنوين اللذين وانهما تالترأ عليه هو أثر بهما الى زمامه واكثرهما موافقة لبيوته، والانسان في الكثير من القراءه يميل في زمامه الى احد الجانبين، وهو في الاكثر من هذا الكثير يميل الى جانب الافراط والزيادة.

«من ملك نفسه اذا رغب واذا رهب، واذا اشتهى»

«واذا غضب. حرم الله جسده على النار»

الامام الصادق (ع)

والعمل هذا وانما يفسد حمة ستوره في القليل. والوردة عن الائمة من اهل البيت (ع) في الحديث عن الفضائل التي توجب بظاهرها التعريط، ففي تحت على الزهد والقناعة لقال الافراط في بيعة

(۳)

تیهرفا رتلفخفا

«ریتشا اناج دیسی اناج بیخی اناج سفا ثلله نه»
«نننا رله سلسج مئا وچه . سیکه اناج»

(۳) رتلفخفا و تیهرفا

وكونها بلا اعتبار في مقياس القيمة، من الناحية العقلية كقولنا بلا اعتبار في مقياسها
 قليلة، وحرية تارة، لانه تارة في كل فعل مستقل من ذاته كما في قوله تعالى
 ولو لم يكن في السما والارض الا نوره والليل نوره والشمس نوره اذا من لم
 يتحقق في مقياس العلم اليقيني، بل في مقياس العلم اليقيني من حيث العلم اليقيني
 في كل من العلم اليقيني وبما كما في قوله تعالى في العلم اليقيني من حيث العلم اليقيني
 كلنا نؤمن بالله عز وجل (والعلم على كل حال العلم اليقيني من حيث العلم اليقيني)
 واني افراد البشر لا يتبين الكمال نفسه ولكن العلم بلقائه بتدوين الحد، و
 قبول النفس تبعاً من الناحية الحسنة هو القوة الوحيدة التي تبلغ فيها
 جانب التفريط بين القوة الامارة، والنفوس التي العلم اليقيني من حيث العلم اليقيني

(٦)

الفضائل الفرعية

علمنا ان الخلق الكريم من كل قوة هو التوسط فيها، وان الافراط في
 تلك القوة والتفريط فيها رذيلتان خلقيتان تعملان على هدم تلك الفضيلة، و
 عاملان نفسيان يحاولان سد تلك الباب الموصل الى الخير والمشي الى طريق
 السعادة، ولا يستطيع الانسان ان يستمر في خلقه الكريم الا بمحاربة هذين
 العدو ين اللدودين و اشدهما تائيراً عليه هو أقر بهما الى نزعاته و اكثرهما موافقة
 لميوله، والانسان في الكثير من افراده ميال في نزعاته الى احد الجانبين، وهو
 في الاكثر من هذا الكثير يميل الى جانب الافراط والزيادة.

اما المعتدلون بغرائزهم، المتوازنون في نزعاتهم، فهم قليل و اقل من
 القليل.

ولعل هذا وامثاله يكشف لنا حكمة مستورة في بعض الاحاديث
 الواردة عن الائمة من اهل البيت (ع) في الحث على الفضائل التي تقرب
 بظاهرها التفريط، فهي تحت على الزهد والقناعة لتقابل الافراط في بهيمة

الشهوة، وتدعو الى الحلم والرفق لتحد من وحشية الغضب، وكم لامناء الشرع في هذا وامثاله من كلمة جامعة.

وقد عرفنا ان الاعتدال الخلقى يقوم بملكات اربع يعدها علماء الاخلاق اصولاً للأخلاق الفاضلة ورؤوساً للملكات الصحيحة الفرعية، فن الجدير ان نشير الى بعض خواص هذه الاصول، ونستعرض جانباً من فروعها لنلم بعض الامام بأراء الامام الصادق (ع) في ذلك.

الحكمة

التوازن العادل في القوة الفكرية هو الحكمة، والرذيلة التي تقابل الحكمة من جانب التفريط هي الحمق والبلادة ويعنون بها تعطيل القوة الفكرية عن العمل، و كبت مالها من مواهب واستعداد، والخسيسة التي تضادها من جانب الافراط هي المكر والدهاء ويريدون منه التجاوز بالفكر عن حدود البرهان الصحيح، واستخدام قوة العقل في ما وراء الحق فقد تثبت نتائج ينكرها الحس وقد تنفي اشياء تثبتها البدهة.

ولست ارى ان لفظ المكر والدهاء يدلان على هذا المعنى لانها بمعنى الاحتيال والخداع، وهو شي، آخر وراء الحكمة الباطلة التي يقصدها هؤلاء المفسرون، اما الدهاء بمعنى جودة الرأي فهو يقرب من معنى الحكمة، واذن فلنسم هذه النقيصة الخلقية (بالحكمة الباطلة) كما يسميها علماء الاخلاق.

ونحن اذا فحصنا الفضيلة العقلية (الحكمة) وجدناها تتألف من عنصرين اساسيين لا غنى لهما عن احدهما:

قوة فكرية في طريقها الى التوازن ،
وعلم يرشد هذه القوة الى طريق الاعتدال .
ليس التوازن في القوة الفكرية من الاشياء التي تمنحها المصادفة، و

يكونها الاتفاق، وليس بالامر السهل الذي تكفي في حصوله للانسان خبرة قليلة وتجربة نادرة، لانه توازن في كل ما يعتقد، وتوازن في كل ما يقول، و توازن في كل ما يعمل، وأنى للقوة الفكرية بهذه الاستقامة التامة اذا هي لم تستعن بارشاد العلم الصحيح، وأنى للعقل بمفرده ان يبصر هدها في الطريق الشائك والمسلك الملتوي.

كلنا نتمنى التوازن العادل في طبائعنا والاستقامة التامة في سلوكنا، واي افراد البشر لا يتمنى الكمال لنفسه ولكن الجهل يقف بنا دون الحد، و ميول النفس تبعدنا عن الغاية، والعقل هو القوة الوحيدة التي يشيع فيها جانب التفريط بين افراد الانسان، وذلك من تأثير الجهل، فالجهل اول شيء يحاربه علم الاخلاق، لانه اول خطر يصطدم به الكمال الانساني، و أول انحطاط تقع فيه النفس البشرية، و أول مجرئ لها على ارتكاب الرذيلة، بل هو اول خطيئة وآخر جريمة.

يرتكب الجاهل اخطاء خلقية تعود بالضرر على نفسه وقد يعود ضررها على امته وشعبه أيضاً، وعذره في ذلك أنه جاهل، و اذا كان الفقيه لا يعدد الجهل عذراً في مخالفة النظام الشرعي، فان الخلق اجدر ان لا يقبل ذلك العذر لان الفقه اسلس قياداً، والفقيه اكثر تسامحاً اما العالم الخلق فانه يطبق نظامه بعنف، و يقرر نتائجه بدقة، ولا يجد في المخالفة عذراً لمعتذر، ولا سيما اذا كان ذلك العذر احد المحظورات الخلقية كالجهل.

و اذن فمن الرشد أن يكون العلم اول شيء يفرضه علم الاخلاق، و من الحكمة ان يقول النبي العربي (ص) (طلب العلم فريضة على كل مسلم) و أن يقول وصيه الامام الصادق (ع): (إني لست احب ان ارى الشاب منكم إلا غاديا في حالين: اما عالماً أو متعلماً، فان لم يفعل فرط، فان فرط ضييع، فان ضييع أثم، فان أثم سكن النار. والذي بعث محمداً بالحق).

الشباب دور القوة والعزيمة، وعهد الطموح والرغبة، و زمان الجد

والعمل والشباب دور تكامل القوى، وتوثب النزعات، وبعد ذلك كله فالشباب هو الدور الاول الذي يتسلم فيه الانسان قيادة نفسه، ويختص به تهذيب خلقه وتثقيف ملكاته، ولعل المرئي قد أساء الصنع بتربيته فأنجذ في الطريق وأتهمت الغاية، ولعل البيئة أعدت غرائزه لما لا يحمد فأضافت الى النقص نقصاً، وجمعت الى النار حطباً، وللنفس في ظل الشباب امانى واحلام، وللشباب دافع من الشهوة ومحفز من الطموح وقائد من العزيمة، والقوة كما قيل مبدأ شرور أو مصدر خيرات.

القوة اداة عاملة تثمر الخير وتنتج السعادة اذا دبرتها الحكمة، و قادت بها المعرفة، وهي على الضد من ذلك اذا قادها الجهل، و حركتها العاطفة واستخدمتها الميول، أما العقل الذي عهد اليه باتباعه فهو لا يزال في عهد فتوة جديدة، و في ابتداء سياسة مستحدثة، وهو في هذه الحكومة الفتية قليل الانصار والجند، قليل التجربة والحنكة، وضعف الحاكم عامل قوي يتخذ منه الطائش مبرراً لعمله، وينتهزه القوي فرصة لتحكماته، فكيف تكون نتيجة هذا الشاب المسكين، وما الذي ينتهي اليه امره.

سيسقط في اخلاقه ثم يسقط، وسيخسر اعز شيء عليه في الحياة من حيث لا يشعر بألم هذه الخسارة لأنه يجمل وبالأحرى لانه لا يحس.

والحل الوحيد لهذه المشكلة أن يجعل لعقل ذلك الشاب من العلم الصحيح مسعداً؛ ومن الحكمة الصالحة معيناً ليصبح قويا بعد ضعف، و كثيراً بعد قلة، و عاملاً بعد خود، على ان التجربة والوجدان ومقررات علم النفس تشهد بأن التعلم في السن الباكر ابلغ في التأثير واعظم في الاستفادة. ويقول الامام الصادق (ع) ايضاً: (لا يفلح من لا يعقل ولا يعقل من لا يعلم و بين المرء والحكمة نعمة العالم والجاهل شقي بينهما)^١ وهذه الكلمة على قصرها تتضمن نتيجة البحث و صفوة القول في المورد، ويقول

(١) الكافي الحديث ٢٩ كتاب العقل والجهل.

ايضاً: (لوددت ان اصحابنا ضربت رؤوسهم بالسياط حتى يتفقهوا)^١
 رأيت كيف يفرض العلم على اصحابه فرضاً، ثم يتمنى ان يستعمل القوة في
 تطبيق ذلك الفرض، ولكن العلم الذي يفرضه على اصحابه هو العلم الذي
 يأخذ بيد الانسان الى السعادة، ويرقى به الى الكمال النفساني، ويقول في
 حديث آخر: (كثرة النظر في الحكمة تفتح العقل)^٢.

شجرة كريمة المنبت؛ طيبة الانتاج، تمت جذورها وزكت
 تربتها، ولكنها لا تأتي بالثمر الطيب اذا لم تسعف باللقاح المناسب؛ تلك
 الشجرة هي العقل؛ وثمارها هي الاخلاق الفاضلة والسلوك الحسن، اما
 لقاحها فهو كثرة النظر في الحكمة؛ هكذا يقول الامام الصادق (ع) في هذا
 الحديث، وهكذا يكون العلم هو اليد الاولى في تأسيس الفضيلة الاولى
 والساعد القوي الذي يمهّد قاعدة الخلق الكامل.

ومن الجهل ما يسمونه بالجهل المركب وهو جهل يشبه العلم في
 الصورة وشؤمه على الانسان اشد من الجهل البسيط، لانه مؤلف من جهلين
 والجهل رذيلة كبرى اذا كان مفرداً فكيف اذا كان مكرراً والجاهل المركب
 عالم في اعتقاده وعمله صحيح في رأيه ولذلك فهو يرتكب الاخطاء ويعمل
 القبائح ولا يسمع نصح ناصح ولا يصدّه عدل عادل.

ليقل القائلون ماشأؤوا وليخطئوه في عمله اذا ارادوا، وماذا عليه
 من نصح الناصحين و عدل العاذلين اذا هو ارضى عقيدته، وأقنع ضميره،
 انهم هم المخطئون فيما يقولون.

بهذا يعل الجاهل المركب اعماله وأخطاءه من حيث لا يعلم ان على
 عينيه منظوراً يلون له الحقائق وعدسة تقلب له الصورة، من أين له بالمرشد الخبير
 الذي يعرفه ان هذا اللون الذي يراه هو للمنظار لا للحقيقة، وان الانقلاب انما

(١) الكافي الحديث ٨ باب وجوب طلب العلم.

(٢) تحف العقول ص ٨٩.

هو في العدسة لا في الصورة، لينكشف له الحق على صورته او - على الاقل -
ليعلم انه لا يعلم .

و يحدثون عن احد الخبثاء انه اشترى حماراً متأنقاً لا يأكل غير
النبات الطري وان بلغ به الجهد وامض به الجوع، فأعيب صاحبه منه ذلك لانه
لا يجد النبات الطري في كل وقت فاحتال على الحمار وألبسه منظراً كبيراً
اخضر ثم قدم له مقداراً من التبن المبلول، فشرع الحمار يأكل واخذ صاحبه
يضحك .

ليأكل الحمار من النبات الاخضر الطري في عقيدته وماذا عليه
اذا رآه الآخرون تبناً اصفر مادام هو لا يرى ذلك . انهم واهمون وانهم
مخطئون .

لا يلام الانسان اذا ارتكب عملاً فاسداً وهو يعتقد بانه عمل صالح
اذا هو لم يقصر في البحث، ولكن هذا لا يكفي لتثقيف نفسه وتهذيب
ملكاته، واذن فالعلم الذي يكون مصدراً للاخلاق الفاضلة هو الذي يوافق
الواقع المعلوم، هو اليقين واليقين فقط .

نعم هو اليقين (الذي يوصل العبد الى كل حال سني ومقام
عجيب) كما يقول الامام الصادق (ع) وهو النور الذي قال فيه : (فان كان
تأييد عقله من النور كان عالماً وحافظاً) وهو الحكمة التي يقول فيها : (كثرة
النظر في الحكمة تلقح العقل)^١ .

ومن آثار هذا اليقين اطمئنان نفس الانسان وخلوده الى السكون،
والرضا في كل ما يعطى وفي كل ما يمنع، فان : (من صحة يقين المرء المسلم ان
لا يرضي الناس بسخط الله ولا يلومهم بما لم يؤته الله)^٢ .

(١) اشرنا الي مصادر هذه الاحاديث في الابحاث السابقة .

(٢) الكافي الحديث الثاني باب فضل اليقين .

العدل

قوة العمل مبدأ كل سلوك و مصدر كل خلق وقد تكرر في الفصول السابقة ان العدل هو مشايعة قوة العمل لقوة العقل و ان العادل هو الذي يتبع ارشاد العقل في كل ما يقول و في كل ما يعمل .

وقد علمنا ان قوة العمل هذه لا تختص بها ملكة معينة من الاخلاق و لكنها تكون جميع الملكات التي تنسب الى القوى الاخرى حتى سلوك العقل نفسه، و ان التوازن في قوة العمل توازن في جميع الملكات و الانحراف فيها انحراف في سائر الاخلاق، و الامام الصادق (ع) يقدر هذه النتيجة بعينها حين يسأل عن صفة العدل في الانسان فيقول: (اذا غض طرفه عن المحارم و لسانه عن المآثم و كفه عن المظالم)^١. لا يكون الانسان عادلا حتى يخضع الشهوة لحكم العقل فيغض طرفه عن المحارم، و يلجم الغضب بلجام الحكمة فتترفع نفسه عن المظالم، و صفة العدل هذه هي التعفف بمعناه العام، و ضبط النفس الذي يقول فيه: (من ملك نفسه اذا رغب و اذا رهب و اذا اشتهى و اذا غضب حرم الله جسده على النار)^٢ و اكثر اخلاقيات الامام الصادق (ع) تشير الى هذا المعنى و لو من ناحية خفية .

لكل واحدة من قوى النفس و غرائزها حقوق يجب أن توفى إليها كاملة غير منقوصة، و لكل منها ميول شاذة يجب أن يضرب من دونها ألف حجاب، و ضبط النفس هو تعادل هذه القوى في السلوك و تساويها في الحقوق فتأخذ كل قوة ما يجب لها و تمنع عما يحظر عليها .

و أكثر الملكات المعتدلة - إن لم نقل جميعها - إنما تكون بتعاون جميع

(١) تحف العقول ص ٨٩ .

(٢) أمالي الصدوق ص ١٩٨ .

القوى النفسانية. فالتوازن في قوة الشهوة مثلاً يفترق إلى قوة العمل في تكونه، و يحتاج إلى قوة الفكر في تحديده وتمييز غايته، وإلى الشجاعة في الثبات عليه و تحمل الآلام في سبيل الحصول عليه، العفة كينت الميول المتطرفة من قوة الشهوة، وقع الرغبات الشاذة منها إلا أنها لا تحصل للشخص إذا لم يكن له من الشجاعة ما يتحمل به ألم ذلك الكبت، ومن الثبات وقوة الإرادة ما يستمر به على تلك الاستقامة، فضبط النفس في الأكثر مزيج من قوى متعادلة في الحقوق، متفاضلة في التأثير، و بعض هذه القوى إيجابي و بعضها سلبي و انما قلنا في الأكثر لأن بعض الملكات العقلية لا يحتاج إلى قوة الشهوة مثلاً.

بقي علينا أن نعرف معنى هذا الاختصاص الذي يذكره علماء الأخلاق، و يصرون عليه كثيراً، فان الاستقامة في الخلق إذا كانت لا تحصل إلا بمساعدة أكثر من قوة واحدة فلماذا يختص بعض الفروع ببعض القوى؟ ولماذا تعد العفة من ملكات قوة الشهوة فقط؟ و يكون الحلم من فروع قوة الغضب خاصة؟

والسر في ذلك أن الملكة الخلقية هي تلك القوة التي تنسب إليها بعد أن يدخل عليها التهذيب، فالعفة شهوة مهذبة، والشجاعة غضب متوازن، والحكمة فكر مستقيم.

ومن هذا التعاون النفساني المتقدم يظهر لنا معنى قول الامام الصادق (ع) في بعض وصاياه لأصحابه: (عليكم بالورع و صدق الحديث وأداء الأمانة و عفة البطن والفرج تكونوا معنا في الرفيق الأعلى)^١. ملكات خمس يوصي الامام اصحابه بالمحافظة عليها ليكونوا معه في الرفيق الأعلى من الجنة، و إذا نظرنا إلى هذه الملكات رأيناها تنتهي إلى قوة واحدة، او إلى قوتين لا غير، فان الورع ينتهي الى الشجاعة إذا كان ورعاً عن نزغات الغضب، و إلى العفة إذا كان ورعاً عن ميول الشهوة، و صدق الحديث أيضاً

(١) الجزء الخامس عشر من البحار باب الورع و اجتناب الشهوة.

قد ينتهي الى هذه وقد ينتهي الى تلك؛ أما الملكات الثلاث الباقية فهي من فروع العفة لاغير، ولكن الامام يضمن لأصحابه أن يكونوا معه في الرفيق الأعلى إذا اعتدوا في هذه الملكات الخمس.

هو توازن في قوة الشهوة ولكنه يلازم اعتدالا في قوة الغضب، واستقامة في قوة الفكر، يستحيل على المتهور ان يكون ورعا، وعلى الجبان ان يلتزم صدق الحديث. اما العقل - وهو المرشد الى ذلك التوازن - فلا بد وان يكون معتدلا ايضا. على ان الورع الذي يبتدئ به هذه الكلمة قريب المعنى من التعفف وضبط النفس والاخلاق التي يعددها ملكات عامة تظهر آثارها في جميع الاعمال والاقوال فاذا استقامت هي كان الانسان مستقيا في اقواله واعماله، ومن اولى من الانسان المستقيم بالرفيق الاعلى.

العدل وضع جميع القوى تحت نفوذ العقل فيعطي كل واحدة من هذه القوى حقوقها كاملة فاذا عمل الانسان ذلك مع الناس الآخرين سميت هذه الصفة منه انصافا وعدلا بمعناه الخاص.

وهذا العدل هو اساس الملك العادل ومحور المدينة الفاضلة والمجتمع المثالي، وهو قد ينتهي الى العفة وقد يكون من الشجاعة ويقابله من جانب الافراط الجور على الغير والتعدي على حقوقه، ومن جانب التفريط اهمال الحقوق المحترمة للنفس وكلاهما جرثومة لكثير من الاخلاق الفاسدة. والعدل يكون صفة للفرد ويكون صفة للمجتمع.

العدل الفردي

للعدل الذي يوصف به الفرد مرتبتان تظهر احدهما في سلوك الشخص مع الناس الآخرين ومعاملاته معهم، فاذا اخذ الانسان حقه كاملا وأعطى الغير حقه موفوراً سمي عند الخلقين عادلا ومنصفا، وفي

هذه الصفة يقول الامام الصادق (ع): (سيد الاعمال ثلاثة: انصاف الناس من نفسك حتى لا ترضي بشيء لنفسك الا رضيت لهم بمثله^(١)، ومن الناس من يتشامم الى حد بعيد من التشاؤم فيعد العدل في الانسان مستحيلا أو هو شيء يشبه المستحيل، فالانسان وحش متمدين. والظلم من شيم النفوس، فان تجرد ذا عفة، فلعله لا يظلم ويذهب بعض هؤلاء المتشائمين الى اكثر من هذا، فيقولون: (الظلم سر كامن في الطبيعة، فالنبات يعدو قويه على ضعيفه والحيوان يفتك كبيره بصغيره والانسان يستبد حاكمه بمحكومه) وهذه الفكرة وليدة عن القول بأن الانسان شرير بالطبع والفلاسفة منقسمون حول هذا الرأي، والشرع يؤيد المذهب المعتدل في ذلك، و يجد الباحث المتتبع شواهد كثيرة على ذلك من اقوال الامام الصادق (ع).

لا ينكر المتشروعون شيوع الظلم بين افراد الانسان، ولكنهم يقولون: مصدر ذلك هو اهمال الغرائز النفسانية حتى تستبد بالحكم، واعطاء النفس قيادها لتسير مع الاهواء بلا رقيب ولا حسيب، أما نفس الانسان و غرائزه فهي مهياة للمسير في طرق الخير وطرق الشر حسب ما يرضيه له سلوكه وترسمه له ارادته واختياره، ولو تعاهد الانسان غرائزه بالتهذيب والاصلاح لسارت نفسه على الهدى، و حقيقت له العدل بجميع معانيه، و لعل الحكيم العربي لا يريد اكثر من ذلك في بيته المتقدم. والمرتبة الثانية من العدل الفردي تظهر في الفصل بين المتخاصمين باعطاء الحق لصاحب الحق من غير حيف ولا تحيز، و عدالة القاضي هذه عند الامام الصادق (ع) مظهر من مظاهر العدل النفساني لانه يقول: «من انصف الناس من نفسه رضي به حكما لغيره»^(٢) وهذا أفضل ما يوصف به

(١) أصول الكافي الحديث الثالث من باب الانصاف والعدل.

(٢) الكافي الحديث ١٢ باب الانصاف والعدل.

الحاكم العادل والقاضى المصلح ، وهل يتصور التحيز في الحاكم اذا أنصف الناس من نفسه ، وهل ينسب اليه الحيف اذا كان أحب الناس اليه و ابغضهم عليه أمام عدله بمنزلة واحدة؟ و اذا علمنا ان العدل في المعاملة يلزم العدل الخلقى العام وجدنا أن العدل في رأي الامام (ع) سلسلة واحدة يتصل بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً لا تفكك بين أجزائه .

أقول : ان العدل في رأي الامام سلسلة واحدة ، لأنه يشترط في الحاكم ان ينصف من نفسه قبل أن ينتصف امن غيره ، ثم يقول ان الانصاف من النفس أشد الاعمال أو هو من أشدها ، و يحدثنا عن ابيه النبي (ص) : « من واسى الفقير و أنصف الناس من نفسه فذلك هو المؤمن حقاً »^١ و قد عرفنا فيما تقدم أن المؤمن حقاً هو الانسان الكامل الذي توازنت ملكاته و اعتدلت اخلاقه ، على أن اشتراط العدالة الشرعية في القاضى من المقررات الواضحة في المذهب الجعفري .

ثم هو يوضح ذلك ايضاحاً لا يقبل التشكيك حين يقول : « اتقوا الحكومة فان الحكومة انما هى للامام العالم بالقضاء العادل في المسلمين »^٢ الحكومة حق خاص للولي العام ، العالم بالقضاء والعادل الاول في المسلمين ، فلا تجوز لغير العالم بالقضاء ، ولا لغير العادل من المسلمين ، هكذا يقول الامام الصادق (ع) في صفة الحاكم ، و هكذا يجب ان يكون .

الحاكم هو الممثل للعدل الديني أو المدني في الحقوق والدماء ، و من الممتنع أن يمثل العدل جائر ، و الحاكم أمين الامة على مقدراتها و أمين السلطة على رعاياها ، و من القبيح أن يؤتمن خائن ، و اذا عجز الانسان أن ينتصف لنفسه من نفسه ، فهو عن انصاف غيره من غيره أعجز ، و اذا كانت نفسه أول رافض لحكمه فان غيره أولى برفضه و أحق برده ، و لا أمر ما حذرت

(١) الوسائل كتاب الجهاد الحديث ١٣ باب وجوب انصاف الناس .

(٢) الكافي الحديث الاول كتاب القضاء .

الشريعة الاسلامية ان يصدر القاضي حكمه وهو غاضب .
 ويقول الامام الصادق (ع) «لسان القاضي وراء قلبه، فان كان له قال وان كان عليه امسك»^١ اجل ان لسان القاضي من وراء قلبه، والله من وراء قلبه ولسانه، وكم يهدم القاضي من صرح، وكم يقوض من دعامة بكلمة يقولها غافلاً او يصدرها غاضباً، وفي هذا الحديث تحذير شديد من التسرع والاستعجال، فان الحكم الجائر يكون على الحاكم قبل ان يكون على المحكوم. والحكم العادل يكون له قبل ان يكون للمنتصر.

اما الرشوة على الحكم...، اما بيع الضمير... والدين...، والقانون، واحترام النفس... ومقدرات الامة... واعتماد السلطة، اما سحق جميع المقدسات بالقدم بازاء ثمن حقير يسمى بالرشوة فهو الدناءة في الهمة، والحقارة في النفس، والحياة للمجتمع، وهو السحت المحرم في كل نظام وعلى لسان كل مشرع، وهو الكفر بالله العظيم في قول الامام الصادق (ع)^٢.

و للعدل عدو جائر قد يلبس ثوب الصديق، وهو التحيز والمالاة، فقد يجور المحاكم من حيث انه يظن العدل، ويظلم من حيث انه يعتقد الرحمة، وللمحبة القلبية والمظاهر الخارجية في ذلك اعظم الأثر. من السهل على النفس اذا اجبت ان ترتكب ثم تعتذر، وان تفعل ثم تتعلل، لترضي الوجدان المكبوت، وتسلي العدل المرغم، وقد يخادع الضمير بتلك المعاذير فيقبل، ولكن العدل يسجلها صحيفة سوداء في ديوان الخائنين، والحاكم مسؤول عنها امام الله، وامام القانون الادبي. ومن هذه الناحية نجد فرقاً كبيراً بين عدل القضاء وعدل المعاملة، فان الحب والميل القلبي قدينا فيان عدل القضاء لانها يثمران التحيز

(١) الوسائل الحديث ٢ باب كراهة القضاء في حال الغضب.

(٢) الوسائل كتاب القضاء الحديث ٨ باب تحريم الرشوة.

والمحابة . اما العدل في المعاملة فانه يزكو على الحب ، ويتكامل على الود لان المحب لا يجور على حبيبه ، والصديق لا يظلم صديقه ، وكثيراً ما بعث الحب على ايثار ، ولعل هذا هو السر الاول في الحث على الحب الذي بالغت فيه الشريعة الاسلامية ، وندب اليه امناء الوحي ، والذي يقول فيه الامام الصادق (ع) : « هل الايمان الا الحب »^١ ، ويقول : « ان المسلمين يلتقيان فأفضلهما أشدهما حبا لصاحبه »^٢ وللحب والصدقة بحث سيأتي .

العدل الاجتماعي :

يولد الانسان وينمو ، و يترعرع و يشب ، و يتقلب في ادواره ، و يتنقل في اطواره ، و هو في جميع هذه الاحوال جزء من المجتمع الذي احاط به ، و الانسان مدين للمجتمع في اكثر صفاته و شيمه ، فهو الذي حذب عليه وليدأ ، و غذاه طفلا و تعاهده بالتوجيه يافعاً ، و هو الذي لقنه اللغة في طفولته و مهد له طريق التعلم في صباه ، و هيأ له اسباب المعيشة في شبابه ، و هو الذي علمه كيف يفكر و كيف يعمل ، و كيف يأخذ ، و كيف يعطي .

أكثر خصال الانسان عادات يكتسبها من بيئته ، و أكثر غاياته ميول يرثها عن اسلافه ، و اكثر علومه نتائج يقتبسها من مرشديه ، و الاجتماع هو الصلة المتينة التي تجعل المجتمع كالجسم الواحد الحي ، و تجعل الأفراد كالأعضاء لذلك الجسم ، يقوم كل عضو منها بما يخصه من الاعمال التي تصلح المجتمع ، و لذلك فالافراد مشتركون في الغاية و متمثلون في الحقوق والواجبات ، و رقي الفرد في شخصيته الاجتماعية بمقدار ما ينتج لهذا المجتمع من خير ، و ما يؤدي اليه من ثمرة طيبة ، و سقوطه فيها بمقدار ما يأتيه من شر و عمل فاسد ، و قد يتمادى عمل السوء ببعض الافراد فيكون كالاعضاء

(١) الكافي الحديث ٥ باب الحب في الله .

(٢) الحديث ١٤ من المصدر المتقدم .

المبوءة التي يجب فصلها عن الجسم وقاية له من شرها. المجتمعات التي يجب فصلها عن الجسم وقاية له من شرها. المجتمع جسم حي مدرك ، له حياته الخاصة ، وحياته نظامها الخاص ، وهو يتصف بالتوازن والانحراف في سلوكه كما يتصف الفرد الواحد من الناس ، والنظام الاجتماعي العادل هو الذي يكفل للمجتمع ولافراده على السواء جميع الحقوق والواجبات من غير تعد ولا تقصير ، فاذا سار المجتمع على ذلك النظام العادل ، وطبقه على سلوكه وسلوك افراده سمي ذلك التوازن منه عدلا اجتماعياً.

العدل الاجتماعي ان تسير الامة الى المثل الأعلى في الحياة وفي الاخلاق ، وان تسعى ما امكنها السعي الى السعادة العامة والكمال المطلوب ، وان تعد للأفراد طرق الوصول الى الخير ، فتنشئ المؤسسات الكافلة لخير البلاد والحفاظة لخيراتها وتؤسس المعاهد الصالحة لاعداد الرجال وتثقيفهم بالثقافة الصحيحة ، وان تتمسك بالانظمة الشرعية الموجبة لحفظ الحقوق وسلامة النفوس ، على أن تسير في جميع ذلك وفق النظام الصحيح ، والحكمة الرشيدة التي يأمر بها العقل ، وبقورها الشرع .

وتعاون افراد الامة وتضامنهم أعظم موجب لتحقيق هذا العدل و ابلغ موثرفيه ، ويقول المتأخرون من الحلقيين إن المسؤول عن تحقيق هذه الغاية هي الحكومة التي تسيطر على الامة وتتحكم في مقدراتها . اما افراد الامة فيقعون في الدرجة الثانية من هذه المسؤولية ، ووظيفة الفرد هي مساعدة الحكومة في تحقيق الغاية بما يمكنه من الوسائل .

وهذا الرأي بين النقص لان العدل الاجتماعي هو التوازن التام في سلوك المجتمع وسلوك افراده ، وتعاون الجميع على العمل في سبيل الخير واكتساب الصفات الخلقية المثلى ، ونيل السعادة العامة ، وهذا كله من مختصات المجتمع نفسه ومختصات افراده ، أما ما تقوم به الحكومة من انشاء المؤسسات والمعاهد الصالحة فهو احد مقدمات العدل الاجتماعي .

والامام الصادق (ع) يرى ان الوسيلة الوحيدة لانشاء هذا المجتمع المثالي هو اصلاح الافراد واعدادهم لان يكونوا اعضاء صالحين ، وترويد كل فرد منهم بما يجب عليه للاسرة وللمجتمع ، فاذا صلح الفرد وتهدبت الاسرة صلحت الامة ، وتوجهت الى سبيل الخير والسعادة ، واذا احتاج المجتمع بعد ذلك الى شيء كان العدل الثابت للافراد دافعاً لهم الى التعاون والتضامن ، وهذا هو المنهج الذي سلكه القرآن لاصلاح البشر وتهذيبهم .

يقول الامام (ع) : (يحق للمسلمين الاجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمساواة لاهل الحاجة ، وتعاطف بعضهم على بعض حتى تكونوا كما امركم الله رحماء بينكم متراحمين مغتمين لما غاب عنكم من امرهم)^١ ويقول : (ما قدست امة لم يؤخذ لضعيفها من قواها غير متعتع)^٢ . وقد سمعنا الكثير من ارشاداته للفرد ، وسيأتي ما هو اكثر ، وقد قال في ذلك ايضاً : (ان استطعت ان لا تخالط احداً من الناس إلا كانت يدك العليا عليه فافعل)^٣ والبد العليا هي التي تبتديء بالمعروف وتسدّي الاحسان ، وتؤدي حقوق الغير اليه كاملة ، وقد سمعنا قوله : (سيد الاعمال ثلاثة : انصاف الناس من نفسك حتى لا ترضى بشيء لنفسك إلا رضيت لهم بمثله)^٤ .

ويقول في تهذيب الاسرة : (اذا لم تجتمع القرابة على ثلاثة اشياء تعرضوا لدخول الوهن عليهم وشماتة الاعداء بهم وهى ترك الحسد فيما بينهم لئلا يتحزبوا فيتشتت امرهم ، والتواصل ليكون ذلك حادياً لهم على الالفة ، والتعاون لتشملهم العزة)^٥ وهو يتدرج في حديثه عن تألف الاسرة

(١) الكافي الحديث ١٥ باب حق المؤمن .

(٢) الوسائل الحديث ٩ باب وجوب الامر بالمعروف .

(٣) الكافي الحديث ١٤ باب حسن الخلق .

(٤) اشرنا الى مصدر الحديث فيما سبق .

(٥) كتاب تحف العقول ص ٧٨ .

تدرجاً طبيعياً، فأول مراحلها هو نبذ التحزب والتفرق، واهم اسباب التحزب هو الحسد، ولا سيما اذا كان بين الاقوياء فيجب نبذه لانه يشتت الامر ويفل الحد، والمرحلة الثانية هي التواصل والبرلان التواصل يسبب الالفة والمحبة، وهذه هي المرحلة الثالثة وهي الاخيرة وواجب الاسرة فيها هو التعاون بين الافراد في كل مهمة ليعيشوا اعزاء في جماعتهم و افرادهم .

اما الحكومة و ممثلها التام في عصر الامام الصادق (ع) هو السلطان فان الامام يفرض عليه في ادارته: (حفظ الثغور و تقصد المظالم و اختيار الصالحين لا عمالهم)^١ و يلزمه لرعيته: (بمكافأة المحسن ليزداد رغبة في الاحسان، و تغمد ذنب المسيء ليتوب و يرجع عن غيه و تألفهم جميعاً بالاحسان و الانصاف)^٢ و للامام فيما يشبه هذا كلمات كثيرة تحدد واجبات السلطان، و وظائف الامراء و فروع الرعية .

و كل ما نستطيع ان نقوله عن هذه الكلمات و امثالها انها نصائح من الامام (ع) يرشد بها خلفاء عصره و من يشابههم في الحكم، و لا يسعنا ان نعتبرها رأياً للامام في الحكومة المثالية التي ينشدها للمجتمع المثالي .

اما الحكومة المثالية في رأي الامام فهي فكرة كبيرة ضعف قلب الزمان عن تحقيقها، و صغر الزمان عن احتمالها فطواها في مهدها يوم لف النبي (ص) في اكفانه، و بقيت امنية مكبوتة في قلب الامام الصادق (ع) و في قلوب زعماء الانسانية من ابائه و ابنائه، هي حكومة اسسها الله يوم اسس الدين، و شرع نظامها يوم انزل القرآن، و سمي خلفاءها يوم بعث محمداً بالرسالة، و هي حكومة غرس النبي بذرتها يوم غرس التوحيد، و تعاهدها يوم تعاهد الامة بالوصايا، و لست اقول إنه اثم العهد للخليفة الاول يوم الغدير، فهذا شيء قد لا يسيغه بعض القراء فقد تجاهله التاريخ من قبل هذا، و تجاهلته الامة من قبل التاريخ، فقلبت النظام يوم انقلابها،

واسقطت من القائمة اسماء لتثبت مكانها اسماء .
نحن لا نتنكر للتأريخ حين يثبت ما كان وحين ينفي ما لم يكن ، و لكننا ننكر عليه حين يمده المؤرخ من وراء العقيدة وحين يمده من وراء السياسة ، وكم لعبت السياسة في التأريخ ادواراً في عصوره الاولى ، و تبعتها العقيدة على الاثر تمحوها تمحو و تثبت ما تثبت ، ولو قدر البقاء للدعاية الاموية الاولى بعد يوم الحسن (ع) و يوم الحرة لعفيّ اثرهما في التأريخ .
لتبق هذه الحكومة المثالية امينة مكبوتة في قلب الامام الصادق (ع) و ليسدل ستار الكتمان على عهد النبي الأخير ، و لتتحول الخلافة الاسلامية ملكاً عضواً بعد عهد الخلفاء الراشدين فان هذا لا يقلل من سعي الامام في تهذيب الامة ، و لا يضعف من دعوته الى انشاء المجتمع العادل .

العفة

يقول القدماء من علماء الاخلاق : الشهوة اول قوة يعرفها الانسان في حياته ، والغضب هو القوة الثانية ، و يسمون الاولى قوة الجذب ، و الثانية قوة الدفع ، و هم يؤسسون على هذا الترتب الوجودي بين القوتين نتيجة علمية لها اثرها في تهذيب الملكات و اصلاحها . يقولون ان الشهوة اول قوة يعرفها الانسان ، فيجب ان تكون هي اول قوة يباشر الانسان في تهذيبها ، و يقررون ان اصلاح الملكات على هذا الترتيب اسرع في الاثر و اسهل في الانتاج .

و نحن نجد الامام الصادق (ع) في بعض اخلاقياته يقدم ملكات قوة الشهوة على ملكات الغضب عند التعداد فقد سمعنا يصف لنا العدل فيقول : « اذا غض طرفه عن المحارم و لسانه عن المآثم و كفه عن المظالم » و يقول : « المؤمن من طاب مكسبه ، و حسنت خليقته و صحت سريره ، و

انفق الفضل من ماله، وامسك الفضل من كلامه، وكفى الناس شره، وانصف الناس من نفسه»^١ وسمعناه يقول ما يشبه هذا في كلمات اخرى، فهل يصح لنا ان نعد هذا تقريراً من الامام لهذه النتيجة؟ ليس من الحق ذلك لان التقديم في التعداد غير وجوب التقديم في التهذيب. على ان الامام (ع) قد يقدم فروع الغضب في بعض اخلاقياته الاخرى.

الرزائل الخلقية جرائم فتاكة يجب دفعها عن النفس مهما امكن الدفع وسموم قاتلة يلزم الحذر منها ما امكن الحذر وجميع النقائص الخلقية في هذا الحكم على السواء، ولا فرق بين القوي منها والضعيف، والاول والآخر، والحكمة في تقديم بعضها على البعض مختلفة جداً.

من الناس من يكون قوي الارادة حازم النفس، ومن الخير لهذا الصنف من الناس ان يبتدىء باصلاح ملكاته القوية لان تأخيرها مظنة للفساد الخلق العام، هذا اذا لم يتمكن من اصلاح جميع ملكاته دفعة واحدة. ومن الناس من يكون ضعيف الارادة واهن النفس ومن الصواب له ان يبتدىء باصلاح الضعيف من صفاته ليثمرن به على جهاد القوي. و هذا الرأي وان لم نجد فيه قولاً صريحاً للامام الصادق (ع) الا ان النظرة الفاحصة في اقواله تؤكد لنا ان هذا خلاصة مذهبه في تهذيب الاخلاق.

قد تستبد الشهوة وتشذ وتمرد على حكم العقل، وتسيطر على قوة العمل فتسمي هذه الشهوة المتمردة شراهة، ويكون تمردها هذا انحرافاً في الخلق، ويتكون من اهمال الغريزة واعطائها الحرية الكاملة فتصنع ما تريد، وللسعي وراء الملذات التافهة والشهوات الرذيلة اثر بالغ في تنمية هذا الشذوذ و تربيته، فان حرية الشهوات تجعل الحر عبداً مملوكاً «ومثل

(١) الكافي الحديث ١٨ باب المؤمن وعلاماته. «... بل له فيه ضعف» : دلت

الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله»^١ والمراد من الدنيا في هذا الحديث هي شهواتها وملذاتها .

ومن البهائم قسم يشبه الانسان في الصورة، ويلحق به في التعداد، وهو يناقضه في العمل ويباينة في السلوك، يرتكب مالا تركبه البهيمة، و يعمل ما يخجل الانسانية، ويعلل اعماله بأن الانسان خلق ليكون حراً فليحطم كل قيد و ليكسر كل غل، وليثري وجه كل عادة و دين . الدين يقف في وجه الحريات فلينبذ، والعادات نجدد سلوك الانسان فلتسقط، و اخيراً هي عادات غريبة يجب على المتمدين ان يسايرها وفقاً للتطور و نبذاً للقديم .

مساكين هؤلاء قد سرى الاستعمار الغربي حتى الى نزعاتهم، و اثر المستعمرون حتى في مجاري تفكيرهم، والمستعمرون دهاة مكرة يعرفون كيف يغزون عقول الضعفاء من طريق الشهوة و مظاهر الحرية ليأخذوا من قلوبهم كما اخذوا من رقابهم و اموالهم، و أتى لهؤلاء المساكين بأن ينقلوا عادات الغرب الى الشرق، و أتى لهم أن يسايروا المتمدين في كل ما يعمل، و اذا كان في الغرب ساقطون يعملون مثل هذه الاعمال، فان فيه عقلاء يترفعون عن الدنيا و يتنزهون عن الخسائس .

خلق الانسان ليكون حراً في الفكر حراً في الحقوق، لا ليعبد الشهوات باسم الحرية، و يقلد البهيمة باسم نزع التقليد، ولا اقول اكثر من هذا لانه لا يدخل في منطقة الباحث الخلقى .

وهنا لون من افراط الشهوة، ولكنه لون احق - إذا صح ان نصف الالوان بالحماقة - اقول هو لون احق لانه مشوه الغاية، مضطرب النتيجة، ولكنه رغم جميع ذلك شائع جداً، ولا سيما في الطبقة المترفة التي تدعي

(١) الكافي الحديث ٢٤ باب ذم الدنيا .

الرفعة، وتتولى رعاية الامور، وهذا اللون هو تعاطي المسكرات .
 رأيت الانسان بشحمه ولحمه يدخل الحانة ليهب عقله بلا ثمن، و
 يشتري الجنون منها بالمال؟ رأيت من يساوم على مقدساته ومقدراته بهلة من
 الكأس ورشفة من العقار؟ رأيت الانسان يتمعك كما يتمعك الحمار، وينبح
 كما ينبح الكلب، ويعربد كما يعربد المجنون، ثم يدعي بعد ساعة انه من
 رؤوس العقلاء ومن قادة المفكرين، وقد يتصدى لمهمات الاشياء ويتسلم
 مقاليد الامور؟

هو في نشوة من سكره، ولذة من خياله، وماذا عليه اذا سلم ثمنها
 مضاعفاً من عقله، وماله وبدنه وراحته ودينه، فانه يبيع جميع ذلك لنفسه،
 وماذا عليه اذا تمت في كلماته، وتخاذل في حركاته، فانها بعض نواحي
 اللذة، وأحد مظاهر الحرية التي ينشدها المتمدينون من امثاله، وليكن منزله
 جحيماً مستعراً للأسرة، فان الحانة جنة له وارفة الظلال، وبعد فانه يريد أن
 يتخلص من ارتاب الحياة فليتخلص من كل شيء يتصل بها.

ساعة شهية يستقبل فيها احلامه واهامه ثم يفرغ ما في بطنه من
 خمر وما في عقله من سكر، ثم يزاول اتعاب الحياة من جديد، وللعقلاء عليه
 أن ينظف ثيابه اذا علق بها شيء من اوساخ الطريق فإذا يريدون منه بعد
 ذلك . يتعلل المجانين بنظائر هذه العلل، وهل تكون علة الخيال إلا خيالا، و
 هل يعتذر عن الجنون بغير الجنون؟

ومن هؤلاء من يترفع عن الحانات، ولكنه يتخذ من داره ماخوراً
 خاصاً لنفسه ولندمائه، فيشرب ويشربون بمنظر من فتاه وبمسمع من فتاته، و
 لعل فتاه هو الساق ولعل فتاته هي المغنية، إنه فن... وإنه تسلية نفس...
 يا للسوء والجفاء... ويا للدناءة الخلقية، واذا رضى الانسان لنفسه
 بالنقيصة فكيف لا يقبل لعرضه بالدنية، وهل تبقى الخمرة فيه بقية من شعور
 يميز بين الحسن والقبيح، والصحيح والفساد...؟

عد على الفقراء من أمتك ببعض هذا الاسراف، وخصص شيئاً منه لمشاريع الخير، واحتفظ بالباقي ليومك العسير، وافعل ما يفعله الرجل العظيم في نفسه القوي في ارادته، فستنال الذكر الجميل في الدنيا اذا كنت ممن لا يثق بالجزاء في الآخرة، كم رأيت من ثروة كبيرة دمرتها الحمرة، وجاه عريض لعبت فيه الكأس، و اذا كنت لم تشاهد شيئاً من هذا فانك قد سمعت منه الشيء الكثير.

ومن هذه الالوان الحمقاء التي تغلب الغاية، وتعكس النتيجة تظاهر الشباب بمظاهر الانوثة، وتصنع الفتى كما تصنع الفتاة. هذا هو الداء الفاتك وهذا هو السم القاتل، ولو كان مختصاً بالشباب الفارغ الذي تعده الامة كلاً ثقيلاً عليها لهان الامر وسهل الخطب، لان هذا النوع من الناس عار على المجتمع، ولكن... ولكن الداء استعزل، والنقص استفحل حتى عمّ الشباب المثقف الذي تعده البلاذليومها الآتى، وتدخره الامة لسعادتها المرجوة.

اقول ان الداء استفحل لانه يهدد مستقبل النهضة، ويزعزع كيان الأمة، وهل تنهض الامة بالمساحيق والمعاجين؟ وهل ينهض بالامة شباب قتل الترف ما فيه من طموح وأمات السرف ما فيه من جد، وأخذ التأنث ما في دمه من جذوة؟

إيه أيها الشباب الناهض. إيه يا عدة اليوم القريب، غرة وطرة، وخذ وقد، وسحروفتون، كل هذه الاشياء خلقت لغيرك أيها الناشء العزيز، واذا كانت الطبيعة قد منحتك شيئاً منها فهي تؤهلك لمقام أسمى، و محل أرفع، لالتجعلك متعة وفتنة.

خلقت لتكون محل إعجاب وثقة، لا لتكون مثار عاطفة وحب، و لتكون موضع إطراء وثناء لا موضع غزل وتشبيب... وأخيراً فقد خلقت لتكون رجلاً.

هل تعلم كم في العيون التي ترنو اليك من نظرة خائفة، و كم في الابتسامات التي تستقبلك من ابتسامة مريية، و كم في الناس الذين يحومون حولك من قلب عابث. وأخيراً فهل تعلم أنك أنت الذي تحيي بذلك على حاضرِكَ الزاهي و مستقبلِكَ الباسم. والشباب زهرة العمر و مستهل الحياة فهو أئمن من أن يقتل بتصفيف الطرة و صقل الغرة، و ماذا يجنيه الشاب من تزجيج الحاجب و حلق الشارب غير اضاءة الوقت و تهديد المستقبل، فالى السعي يا رجل الغد القريب، و يا أمل الأمة المنشود. الى السعي فان الرجل بثقافته و أعماله و الرجل بسيرته و سريرته و الرجل بجهاده في ميادين الحياة. ولو أردنا ان نستعرض جميع الفروع التي تتصل بافراط الشهوة لاحتجنا الى مجلد ضخيم، و الامام الصادق (ع) يذكر أكثر هذه الفروع في كلماته.

يشتهد إفراط الشهوة فيتولد منه الحرص، و يقوى الحرص فيكون تهالكاً في حب المال و الجاه، و ينتج منه التكبر، و الرياء، و التحاسد. و.. و الامام الصادق (ع) يعرض جميع هذه الأدواء عرضاً إجمالياً حين يقول: (حب الدنيا رأس كل خطيئة)^١ أما الطمع الذي يثمر أكثر هذه النتائج فهو الذي يخرج الانسان من الايمان في رأي الامام الصادق (ع)^٢ و هي المذلة التي يقبح بالمؤمن ان تكون فيه^٣.

و يقول (ع): (من كثراشتباكه بالدنيا كان أشد لحسرتة عند فراقها)^٤ الشهوات مصادر الآلام، و هي أسباب تؤدي الى التعب و فقد الراحة، فالشهوة سبب للألم قبل حصولها لأن تحصيل الرغبات يستدعي من الانسان طويلاً من السعي و كثيراً من الجهد، و هي سبب للألم بعد وجودها لأن حصول الرغبة يثير الحرص في الانسان على طلب نظائرها فيسلبه الراحة و

(١) كتاب الخصال للصدوق ص ١٥ . ٢) الكافي الحديث ٤ باب الطمع . ٣) الحديث ١ من

المصدر المتقدم . ٤) الكافي الحديث ١٦ باب حب الدنيا.

يفقده الطمأنينة، والشهوة سبب للألم بعد فراقها لأن فراق المألوف يبعث الأذى ويسبب الألم، وكما كانت الرغبة أكثر ملائمة للإنسان كان فراقها أشد ألماً في قلبه، وأكثر مضاضة في نفسه، وقد تعرض الامام الصادق (ع) لهذه الناحية في حديثه المتقدم، اما الناحية الاخرى فانه يقول فيها: (من تعلق قلبه بالدنيا تعلق قلبه بثلاث خصال: هم لا يفنى، وأمل لا يدرك، ورجاء لا ينال) ^١.

و اذا توازنت قوة الشهوة في ميولها، وخضعت للعقل فيما يحكم، و اتبعت إرشاده في كل ما يشير كانت عفة و حرية، والامام الصادق (ع) يسميها عفة حين يقول: (اي الاجتهاد أفضل من عفة بطن وفرج) ^٢ و يسميها حرية حين يصف صاحب الدين فيقول: (و رفض الشهوات فصار حراً) ^٣ ثم هو يحدد بها معنى الزهد بقوله: (أزهد الناس من ترك الحرام) ^٤، و حين يسأله بعض اصحابه عن الزهد فيقول له: (ويحك حرامها فتنكبه) ^٥ و هذه هي الدرجة الأولى من الزهد التي يشترك فيها عامة الناس، و للزهد درجات اخرى متفاوتة يختص بها قوم من المخلصين، أما الرهبانية و ارهاق النفس بالتعذيب المتواصل و حرمانها من الحقوق المحترمة فهي أمور ليست من الزهد. بل و ليست من الدين في قليل ولا كثير.

القناعة والاقتصاد:

يحد الانسان من شهواته و رغباته فيضمن لنفسه الراحة من العناء، و يوفر عليها كثيراً من الزمن، و يقتصد في المعيشة و يعتدل في حب المال، و

(١) الحديث ١٧ من المصدر المتقدم، و يقول المجلسي في كتاب مرآة العقول المراد بالأمل في الحديث هو الأمل في البقاء في الدنيا والرجاء هو الرجاء للذاتها.

(٢) جامع السعادات ص ٣١١.

(٣) مستدرک الوسائل ج ٢ ص ٣٧٩.

(٤) الخصال للصدوق ص ١١ (٥) الكافي الحديث الاول باب معنى الزهد

يسمى الاعتدال في حب المال قناعة، ويسمى الاقتصاد في المعيشة رفقاً، و يقول فيه الامام الصادق (ع): (الرفق في تقدير المعيشة خير من السعة في المال)^١ ويقول أيضاً: (ما زوي الرفق عن أهل بيت الازوي عنهم الخير)^٢ ويقول: (ضمنت لمن اقتصد أن لا يفتقر)^٣ وليس بين البخل وبين الاقتصاد صلة، ولكن من البخلاء من يعلل عن امساكه بانه نوع من الاقتصاد الذي يأمر به العقل، وهى علة يتعلق بها المذنب وعذريسوقه اليه شعوره بالجريمة، الاقتصاد تنظيم معيشة الانسان على ما يفرضه العقل الصحيح، وتحمله المقدرة المالية فيعطى في موضع الاعطاء ويمسك في موضع الامساك بلا سرف ولا تقتير، والبخل هو المنع في موضع وجوب الاعطاء. والتقتير في محل وجوب التوسعة، فأية صلة بين الخلقين.

الاقتصاد هو التوازن العادل وطرفاه هما الاسراف والتقتير، أما الكرم والايثار فهما لا ينافيان الاقتصاد اذا اقتضتهما الحكمة، وتحملتها المقدرة، المقتصد سخي لانه (يؤدي واجب الشريعة، و واجب المروعة، و واجب العادة) والبخيل هو (الذي يمنع واحداً من هذه الواجبات).

والقناعة صفة تقارب الاقتصاد في الاثر، وتقابله في المعنى، والفرق بينهما هو الفرق بين الخلق والسلوك، القناعة ملكة في الانسان تكسبه الرضا بالقليل، والاكتفاء بما يسد الحاجة، والاقتصاد تنظيم المعيشة على ما تفرضه الحكمة وتدعو اليه الضرورة وأثر كل منهما اطمئنان النفس بما يحصل لها من القوت، والاقتصاد محتاج الى القناعة في وجوده، والقناعة محتاجة الى الاقتصاد في ظهورها في العمل، فيكون بين الوصفين تضامن في العمل واتحاد في الاثر.

خلق الانسان و خلقت معه الحاجة و الوسائل التي يسد بها تلك الحاجة، لا بد للانسان من القوت لانه يريد ان يعيش ولا بد له من الملابس

(١) الكافي الحديث ٩ باب الرفق (٢) الحديث ٨ من المصدر المتقدم (٣) جامع السعادات ص ٣٦١.

لانه يريد ان يجتمع ، ولا بد له من المسكن لانه يريد ان يستقل ، اذن فالانسان محتاج الى هذه الضرورات و الى امثالها من وسائل الحياة ، وهو محتاج الى مال يبلغه تلك الغايات ، و الى مكسب يوصله الى المال ، و كيف يحصل على الكسب بغير الاجتماع .

حلقات من الحاجة يتصل بعضها ببعض ، ولا ينفك بعضها عن بعض ، و المال بعض هذه الحلقات المتصلة ، ولا ينكر احد اهميته في الحياة ، و لكن الشيء الذي يستنكره العقل أن يجعل المال هو الغاية الاولى و الاخيرة تحطم في سبيله كل غاية ، و تستخدم في تحصيله كل وسيلة ، و ينبذ كل تشريع و نظام .

النفس ميالة الى الشهوات ، و المال يسهل لها طريق الحصول على هذه الغاية ، هذا هو مبدأ الشر و هذه هي جرثومة الداء ، هذا هو الذي يفسر لنا المبالغة التي نجدها في ذم المال و التحذير منه فان التخلص من الادواء التي يسببها جمع المال عسير جدا .

(ان الشيطان يدبر ابن آدم في كل شيء ، فاذا اعياه جثم له عند المال فأخذ برقبته)^١ هذه كلمة يقولها الامام الصادق (ع) في التحذير من المال و بالاحرى في التحذير من النقائص التي يسببها جمع المال ، الشيطان يجثم لابن آدم عند المال اذا اعياه في كل شيء ، اذن فالمال أعظم شبك الشيطان و اكبر مصائده ، و الانسان مفتقر الى المال لان الحاجة تدعوه الى طلبه ، و اذن فلا بد أن يلتقي الخصمان على مجزرة المال ، و لا بد أن يغلب المتيقظ منها الغافل ، و يظفر الجاد بالهازل ، فان المال باب الشهوات و مفتاح المطامع ، و الانسان رهين اطماعه و عبد شهواته ، و هكذا يستعيد الحرو يبلغ الشيطان أمنيته من عدوه فيأخذ برقبته رضي الانسان بهذه النتيجة أم أبأها .

(١) اصول كافي في الحديث ٤ باب حب الدنيا .

وللشريعة الاسلامية نظرة معتدلة الى المال ، فهو خادم أمين يبلغ به الانسان حاجته ، وللخادم الامين منزلته وله مقامه ، على ان يبقى السيد سيداً ، ويظل العبد عبداً ، والمال وسيلة محبوبة توصل الانسان الى الخير ، وتحصل له السعادة ووسيلة الخير خير ، وسبب السعادة سعادة ، على ان تبقى الوسيلة وسيلة والغاية غاية ، واما تحصيل المال بالسرقة والخيانة ، والظلم في المعاملة والتعدي على الحقوق . و.. فهو اشد المحظورات عند الشرع والعقل ، ومن اعظم المنكرات في علم الاخلاق ، لانه يمت الغاية قبل الحصول على الوسيلة ، وينقض الاساس قبل ان يتم البناء ، ولست بحاجة الى ذكر الشواهد على ذلك من كلمات الامام الصادق (ع) لان تحريم هذه الاشياء من ضروريات الدين الاسلامي .

ولست اذكر الربا والمرابين إلا بخير ، فان الربا اختلاس يبيحه النظام المدني ، والمرابين سراق يحترمهم القانون ، وماذا على المسلم اذا أكل الربا هنيئاً مادام القانون يثبت له هذا التجاوز ، وما دامت المعاملات الربوية شائعة بين الناس ، فليغصب أموال الناس باسم النظام ، وليموه على جرمته باسم التأويل ، وليكن بعد هذا محارباً لله ولرسوله في رأي القرآن ، وليكن الربا اشد حرمة من الزنا في رأي الامام الصادق (ع) ، فانه يتأول قبل ان يرتكب ، وليس عليه بعد التأويل شيء ، وبعده فان تحريم الربا فكرة يجب على المسلم ان يعترف بها في مقام الاعتقاد ، وليس عليه ان يطبقها في مقام العمل .

والفقير قد يكون آمناً من اكثر هذه الجرائم التي تتعلق بالمال ، ولكنه قد يتعرض لما هو اشد منها جرماً واكبر اثماً . ان يمسك بالمال ولتفه قد يحمله الاعواز على ان يسرق ، وقد يدعوه الفقر الى ان يخون ، او يستدين ثم ينكر ، وقد... ، وقد . ، والفقير الى جانب اليأس اقرب منه الى طرف الرجاء ، و الى الجزع اكثر ميلاً منه الى الصبر ، واكثر ما يقترفه من

الذنوب نتيجة ذلك اليأس و ثمرة ذلك الجزع ، واحاديث الأئمة من اهل البيت (ع) قد تنوعت للفقير بأنواع البشائر لتحيي فيه ميت الرجاء ، وتبعث في قلبه روح الامل ، ثم امرته بالكسب ورغبته في الاقتصاد ، وللامام الصادق (ع) كلمات تتصل بهذا البحث يجب ان تتخذ قواعد عامة في باب الاقتصاد ، و من هذه الكلمات قوله :

« لا تكسل في معيشتك فتكون كلا على غيرك »^١

« ضمنت لمن اقتصد ان لا يفتقر »^٢

« انظر من هو دونك في المقدرة ، ولا تنظر الى من هو فوقك »^٣

« السرف امر يبغضه الله حتى طرحك النواة فانها تصلح لشيء »^٤

« من كان رقيقا في امره نال ما يريد من الناس »^٥

« تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ غَلْبَةِ الدِّينِ وَغَلْبَةِ الرِّجَالِ »^٦

الشجاعة

ابرز صفات الرجولة ، واعز ملكاتها ، و اكثرها اثرا في تهذيب الاخلاق ، و تنظيم الاعمال ، لان تهذيب الملكات جهاد ، والمحافظة على الملكات المهذبة جهاد آخر ، والمجاهد مخذول اذا لم تناصره الشجاعة ولم يرافقه الصبر ، وبالثبات تنجح المساعي و تبلغ المقاصد ، وتم الاعمال ، والشجاعة بنفسها احدى الملكات التي لا تحصل إلا بالمجاهدة ، لانها توازن في قوة الغضب ، و كيف يتوازن الغضب من غير كفاح ، و كيف ترد عاديته بغير

(١) الكافي الحديث ٩ باب كراهية الكسل من كتاب العيشة .

(٢) و (٣) جامع السعادات ص ٣٦١ .

(٤) تحف العقول ص ٨٩ .

(٥) الكافي الحديث ١٦ باب الرفق .

(٦) الكافي الحديث الاول باب الدين .

جهاد، و اذن فلا بد للانسان من قوة اخرى تضرب الغضب بالغضب و تمزج اللين بالقوة لتركب من المجموع مزيجاً معتدلاً يسمى بالشجاعة، و تلك القوة هي الحكمة، و جنديها المكافح هو قوة الارادة.

(الغضب محقة لقلب الحكيم) بهذه الكلمة القصيرة يصف الامام

الصادق (ع) آثار الغضب ثم يقول بعدها: (من لم يملك غضبه لم يملك عقله) الحكمة دليل الخير ورائد الاصلاح، و قلب الحكيم مصدر هذه الدلالة و مشرق ذلك النور و لكن ماذا يجدي هذا الدليل إذا هاج الغضب، و ماذا ينفع هذا إذا احتدم الغيظ.

قد يسترشد الاعمى فيرشد، و قد يستدل الحائر فيبهتدي و الغاضب لا يقبل الارشاد ولا يسمع النصيح، لان الغضب جنون و المجنون لا يسمع نصيح الناصحين، دليل هذه الدعوى ظاهر في عيني الغاضب، و على تجاويد وجهه، و احتباس انفاسه، و تزامم الكلمات على شفثيه، ثم هو قد يعتذر بعد ذلك عن اعماله بأنه غاضب، اذن فهو يعترف على نفسه بالجنون (و من لم يملك غضبه لم يملك عقله).

و تهذيب الغضب يكون قبل حصوله، و طريقه هو التفكير في اسباب الغضب و التأمل في عواقبه و ما يجره على النفس و على الغير من اضرار و اخطار. و ليس من الصلاح ان يتعرض المرشد للانسان في ساعة غضبه، لانه قد يضيف بارشاده الى الغضب غضباً و يجمع الى النار حطباً، و لكن من الخير ان يتمهله في النتيجة، و ان يصرفه عن الفكرة صرفاً تدريجياً، لان الغضب ثورة في دم القلب كما يقولون و بالتماهل و صرف الفكر تسكن هذه الثورة و يخلد الانسان الى السكون، و يقول بعض علماء النفس (اذا غضبت فعد العشرة) و هو يشير الى هذا المعنى لان تعداد العشرة يستدعي فرصة ولو قصيرة و يسبب تغييراً في وجهة النظر ولو قليلاً.

(الغضب مفتاح كل شر)^١ يزول الغضب عن الانسان ببطء او بسرعة، ويبقى في النفس ما تبقى النار في المشيم، و اذا خلفت النار اثرا واحدا او اثرين، فان الغضب يبي آثاراً كثيرة لا يضبطها حساب، فالخقد، وحب الانتقام والقسوة وسوء الخلق، والبغي، والعجب، والكبر، و... و... كل هذه من ثمرات التهور والافراط في قوة الغضب.

ويقابله من جانب التفريط الجبن، و اذا كان التهور خروجاً عن حدود الانسانية الى حد الجنون، فان الجبن ضعة في صفات الرجولة الى حد السقوط.

يعيش الجبان في جو من الاضطراب، و يخلق لنفسه مشاكل من الذعر. لانه يفقد أعز شئين يحتاج اليهما الانسان، وهما: الثقة بالنفس، وقوة الإرادة، و عدوه الاول والاخير: الخوف والشعور بالنقص، ولو فكر قليلا لعلم ان جميع ذلك من نسيج الوهم، و ان الاحتياط الذي يتخذه لنفسه هو أشد ظلمة من الواقع الذي يحذر منه، لان عاقبة هذا الخوف معلومة الخطر أما الواقع الذي يفر منه فهو خطر محتمل، و يحدثنا التاريخ ان كثيرا من الجبناء قتلهم الخوف من حيث انهم يجتنبون مواضع الخوف.

وللجبن أثر سيء على الصفات والاعمال، فهو يطبع الاخلاق بطابع الذعر، و يسم الاعمال بسمة التردد، و قد يكون من المستحيل على الجبان ان يتم عملا واحداً صحيحاً حتى في هذه الاعمال التي يتحصن بها من الخوف، لانه ضعيف النفس أمام وهمه، ضعيف الإرادة أمام خطواته. و ردائل الجبن لا تقل عدداً عن نقائص التهور، و من أعظمها تأثيراً على الانسان الخوف من غير وجود سبب يوجب الخوف، والعجز عن احتمال ما يجب تحمله من الامور، وضعة النفس وقصور الهمة، وفقدان الغيرة.

اما الشجاعة فهي أول فضيلة للقوة الغضبية، ولها مظهران: ثبات

(١) الحديث الثالث من المصدر المتقدم.

في مقام الدفاع . و اقدام في محل الجهاد .
والشجاعة لا تتميز بلون واحد، ولا تختص بسمة خاصة، فالغضب
للحق شجاعة لانه مما يأمر به العقل، والحلم عن جهل الجاهل شجاعة لانه
مما يدعو اليه الرشد والثورة على الباطل شجاعة لانها مما تقتضيها الحكمة،
يتقدم الشجاع في موضع التقدم، ويتأخر في محل التأخر، وهو في كلتا
الحالتين شجاع لانه ثابت القلب أمام المخاطر، شجاع لانه يدبر حركاته
بالحكمة . ويقسمها المتأخرون من الخلقين الى شجاعة بدنية، وشجاعة
ادبية .

الشجاعة البدنية:

(جبلت الشجاعة على ثلاث طبائع، لكل واحدة منهن فضيلة
ليست للآخرى: السخاء بالنفس، والأنفة من الذل، وطلب الذكر، فاذا
تكاملت في الشجاع كان البطل الذي لا يقام لسبيله والموسوم بالاقدام في
عصره، و اذا تفاضلت فيه بعضها على بعض كانت شجاعته في ذلك الذي
تفاضلت فيه اكثر واشد اقداما)^١.

عناصر الشجاعة ثلاثة على ما يقرره الامام الصادق (ع) في هذا
الحديث، يجب توفرها في الشخص ليسمى شجاعاً بالاستحقاق، والذي
يفقد واحدا منها لا يستحق هذه الصفة لانه يفقد ركناً من اركان الشجاعة .
(١) السخاء بالنفس، وهذا هو العنصر الاول في الاهمية ايضا، و
اذا عرفنا ان السخاء بالشيء هو بذله عن طيب نفس علمنا الذي يتكلف
بذل نفسه لبعض الدواعي لا يستحق ان يسمى شجاعا، وان اجتمعت فيه
العناصر الاخرى للشجاعة ولكن قد يتكرر هذا التكلف من الانسان حتى
يصبح معتاداً عليه، و يعود سخياً ويستحق صفة الشجاعة اذا استكمل بقية

عناصرها .

(٢) و (٣) الإباء، والشمم، وهما خلقان نفسيان متلازمان في الأكثر، واثرا لإباء احتفاظ الانسان بكرامة نفسه وترفعه عن الدني من الامور، واثر الشمم، طلب الرفعة والتوجه الى المراتب الجليلة، وهما قريبان في المعنى من عزة النفس، وعلو الهمة، وسنذ كرهما فيما يأتي. وهذه العناصر الثلاثة المتقدمة قد تجتمع في الشخص بأرقى مراتبها فيصفه الامام (ع) بالشجاع الكامل وبالبطل الذي لا يقام لسيله. وقد يضعف فيه بعض العناصر فيفقد من الشجاعة الكاملة بمقدار ذلك النقص .

اما الشرط الاول للشجاعة وهو اخضاع قوة الغضب لقوة العقل فيقول فيه : ثلاثة تعقب مكروها . حملة البطل في الحرب في غير فرصة، وان رزق الظفر^١. النفس أثنى شيء يجده الانسان، ونفس البطل أعز ذخيرة يحتفظ بها ليومها الاكبر، فيجب عليه ان لا يخاطر بهذه النفس الا اذا أحرز الفرصة ووثق بالفوز، والا فانه يبيع نفسه من غير ثمن، والعقل يعده مجازفاً وان رزق النصر، لأن نصره هذا وليد المصادفة، والمصادفات لا تدخل تحت مقياس .

والشجاعة لا تختص بالجندي يقدم نفسه فداء للدين، أو يبذل دمه لنصرة الوطن فان للشجاعة البدنية أنواعا كثيرة، لأن شدائد الحياة لا تدخل تحت حساب، وملاقة هذه الاهوال شجاعة متى كان الاقدام فيها بإشارة العقل وارشاده فالشجاعة تكون في الجندي وفي القائد، والطبيب ورجال الانقاذ على حد سواء اذا اجتمعت في هؤلاء عناصر الشجاعة التي ذكرها الامام في حديثه السابق .

الشجاعة الادبية

قد يصوب الانسان رأياً من الآراء أو يعتنق مبدءاً من المبادئ،

فيعتقد أنه الحق، ثم يجبر بهذه العقيدة وان كلفه الجبر بها غالياً، وأدى ثمنها مضاعفاً فيسمى جهره هذا شجاعة أدبية عند الأدباء المعاصرين .

والشجاعة الأدبية خطة كبيرة يقوم عليها أساس نشر الحق وإعلان المبادئ السامية، وهي خطة المصلحين العظماء الذين اضطهدوا في اسعاد البشر وما توا لاجيائهم، والذين تنكرت لهم البشرية أحياء ثم خلدت لهم الذكر أمواتاً، ومن هؤلاء جنود مجهولون خدموا الناس فأنكرهم الناس وجهلهم التاريخ، ولكن أعمالهم مدونة في سجل هو أرفع من التاريخ، واذا شكر الحق أعمالهم، ورفع لهم منازلهم فاذا يصنعون بتقدير الناس .

والشريعة الاسلامية تجعل هذا المبدأ من أهم فروضها، واكبر واجباتها وتسميه (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، ويقول الامام الصادق (ع) في بيان وجوبه: (ويل لقوم لا يدينون الله بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر)^١ ويقول في الحث عليه: (مروا بالمعروف وانها عن المنكر، فان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يقربا أجلا ولم يباعدا رزقا)^٢.

مرت على الامام الصادق (ع) ايام مختلفة تبدلت فيها سياسات و تقلبت فيها أمور، وقد شاهد الامام (ع) فيها أنواعاً من الحكم، وكانت الأيام تبتسم له مرة وتعبس مرة أخرى، وكان الحكم يقسوتارة، و يلين تارة، والامام بين هذه الاحوال ينتهز الفرصة لنفسه ولأصحابه في نشر الدعوة الى المذهب، فيأمرهم بالاعلان حين تبسم لهم الايام، ويحذرهم عنه حين تعبس، وهذا الحذر والتكتم أثار من آثار التقية التي عرفت في المذهب الجعفري، والتي شرعها الله في كتابه .

واسرف بعض المذاهب التي تنتسب الى الشيعة في التكتم بعقائده

(١) الكافي الحديث ٤ باب الامر بالمعروف .

(٢) الوسائل الحديث ٣٤ باب وجوب الامر بالمعروف .

وأحكامه حتى بعد ارتفاع الشدة وانتهاء ايام الجور، وتمسك المذهب الاسماعيلي بذلك مشهور في التاريخ، ولايضاح معنى التقية و بيان اسرارها و أحكامها كتب اخرى و باحثون آخرون، والذي نقوله هنا: ان الامر بالمعروف في رأي الامام الصادق يكون واجباً ومن أهم الواجبات حين يكون موجباً لتأييد الحق و تعزيز دعوته، و هو حرام اذا عرض بالدماء الزكية، و خاطر بالنفوس المحترمة، و هو من أشد المحرمات حين يكون سبباً لاهانة الحق و اذلاله، و لذلك فهو يقول: (المذيع علينا كالشاهر سيفه علينا، رحم الله عبداً سمع بكنون علمنا فدفعه تحت قدمه)^١ و يقول ايضا: (من روى علينا حديثاً فهو من قتلنا عمداً ولم يقتلنا خطأ)^٢ هكذا يأمر أصحابه بالكتمان في أيام الشدة:

عزة النفس، و علو الهمة

معرفة الانسان بقيمته تستدعي طويلا من التأمل، و كثيراً من التيقظ والانتباه، فقد يسرف به حب الذات فيعطي نفسه اكثر مما تستحق من القيمة، و قد يسف به الصغار فيظلمها أقبح الظلم، و عزة النفس تتطلب من الانسان شيئين:

- ١- ان يحدد قيمة نفسه تحديداً صحيحاً.
- ٢- ان يحدد منازل من يتصل بهم من الاصدقاء، و قيمة ما يباشره من الاعمال، فيضع نفسه في موضعها الذي يليق بها، و يتصل بمن يناسبه من الاصدقاء و يباشر ما يليق بشأنه من الاعمال، و التعدي عن ذلك اذلال للنفس و تعريض بكرامتها الى الانتقاص، و في ذلك يقول الامام الصادق (ع): (ان الله فوض الى المؤمن أموره كلها ولم يفوض اليه ان يكون ذليلاً)^٣

(١) و (٢) تحف العقول ص ٥٧.

(٣) فروع الكافي الحديث ١ باب كراهة التعرض لما لا يطيق.

ويقول: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه» وسأله الراوي عن معنى اذلاله لنفسه فقال: «يدخل فيها يعتذر منه»^(١)

اما علو الهمة فهو استشراف الانسان الى المعالي، ونزوعه الى الرفعة والسمو.

خلق الانسان مجبولا على حب السعادة، والحصول على الكمال، و لكن الوصول الى هذه الغاية دونه عقبات ومصاعب، ولذلك فالذين يجتهدون في طلب الكمال قليلون، والذين يصلون الى الغاية أقل هذا القليل، وعلو الهمة وحده هو الذي يسهل هذه العقبات، ويذل هذه المصاعب.

أما قاصر الهمة فقد يقعد به العجز عن السعي وقد يرجع الى الوراء من منتصف الطريق وفي ذلك يقول الامام الصادق (ع) «ثلاثة يحجزن المرء عن طلب المعالي: قصر الهمة، وقلة الحيلة، وضعف الرأي»^(٢)

كثيرون اولئك الذين يفهمون من عزة النفس معنى الكبرياء، ومن علو الهمة معنى العظمة الزائفة، وهي نظرة خاطئة ترسل من غير تدبر، عزة النفس ترفعها عن الدنيا والنقائص، وعلو الهمة هو طموح الانسان الى شريف الاعمال والاخلاق، وهما أساسان لرقى الفرد ورقى الامة.

يقدم الانسان غيره عند تساوي الحقوق فيسمى مؤثراً، ويتسامح في بعض شؤونه فيكون متواضعاً، ويتغاضى عن جهل الجاهل فيسمى حليماً وهو عزيز النفس عالي الهمة في جميع ذلك، من عزة النفس ان يؤثر في موضع الايثار، ومن علو الهمة ان يحلم في موضع الحلم، وعلو الهمة أداة ينال بها الانسان ما لا يناله بالثروة، ويدرك بها ما لا يدركه بالمنصب، المنصب عادية والثروة زائلة، وعلو الهمة ثروة نفسية باقية ما بقي الانسان، وتظل آثارها باقية بعد موت الانسان.

(١) الحديث ٥ من الباب المتقدم.

(٢) تحف العقول ص ٧٧.

أنظر الى من هو فوقك في الكمال ، وثق بنفسك قبل المسير ، و اذا سرت
 فضع قدمك بثبوت وانقله بحزم فستجد اللذة عند أول قدم تضعها ، وستفوز
 بعد قليل بالغاية ، ستعترضك في الطريق اشباح وأوهام يسميها العامة من
 الناس مصاعب فلا تعرها التفاتا ، ولا تلق لها بالا ، فان السلم لا بد له من
 المدارج . تقدم ولو خطوة فانها تمهد سبيل الخطوة الثانية ولا تقف في مسيرك
 إلا حين يأمرك العقل بالأناة فان الوقوف تضييع للفرصة وتبذير في الزمن ، و
 لتكن العقبات بعد ذلك ما كانت ، فان العقبات لا تصد الحر عن قصده ، ولا
 تضعف من ارادته «ومن انتظر بمعالجة الفرصة مؤاجلة الاستقصاء سلبته
 الايام فرصته لان من شأن الايام السلب وسبيل الزمن الفوت»^١ .

الاناة والحلم :

كل عمل يبشره الانسان بارادته واختياره لا بد له من غاية ولا بد له
 من طريق يوصله الى تلك الغاية ، والانسان الكامل هو الذي يفكر في الغاية
 قبل الشروع في العمل فلعل هذه الغاية غير شريفة في نظر العقل وان وافقت
 هوى في القلب ، ولعلها لا تناسب علو الهمة وان كانت شريفة في نفسها
 فان بعض الغايات يعد شريفاً ولكنه يحدد من قيمة الرجل العظيم ، ولعل
 الاستيلاء على تلك الغاية يزاحم حقوق آخرين من افراد الانسان فيكون في عمله
 هذا ظالماً او مستأثراً والعظيم أعلى همة من أن يظلم او يستأثر .
 ثم ينظر الى الطريق فعلها أبعد سبيل الى الغاية فتضيع عليه طويلا من
 الزمن ، وليس عليه أن تكون أسهل الوسائل فان صعوبة الجهاد تضاعف لذة
 الانتصار .

تهون علينا في المعالي نفوسنا

ومن خطب الحسنة لم يغله المهر

على الانسان أن يتفكر في أسباب النجاح قبل الشروع في العمل ، و عليه ان تثبت في تطبيقها حين العمل ، و جميع هذا يستدعي أناة في الطلب و تروياً في الفكر لئلا يخفق في السعى و يبعد عن المقصود ، و في ذلك يقول الامام الصادق عليه السلام: (قف عند كل أمر حتى تعرف مدخله من مخرجه قبل ان تقع فيه فتندم)^١. و يقول أيضاً: (العامل على غير بصيرة كالسائر على غير طريق فلا تزيده سرعة السير إلا بعداً)^٢.

و يقول بعض الحكماء: (الحلم والأناة توأمان نتيجهما علو الهمة).
الأناة: هي التثبيت في انجاز العمل حذراً من الاخفاق ، والحلم هو التثبيت في امضاء القدرة عند الغضب ترفعاً عن الظلم او رغبة في التكرم والصفح ، فالأناة والحلم توأمان متشابهان كما يقول هذا الحكيم ، و اما ان نتيجهما علو الهمة فهو حكم ليس بإمكاننا أن نصدقه في جميع الناس .

من الناس من يكتسب علو الهمة بالحلم والأناة ، و من الناس من يكتسب الحلم والأناة بعلو الهمة ، والحكم الذي لا يقبل الشك ان الحلم والأناة يصحبان علو الهمة صحبة دائمة .

و يقول (ع): (من لم تكن فيه ثلاث خصال لم ينفعه الايمان : حلم يرد به جهل الجاهل ، و ورع يحجزه عن المحارم . و خلق يداري به الناس)^٣.
الحلم مناعة في النفس يتحصن بها الانسان عند هجوم الغضب و حب الانتقام ، والحلم عدة الانسان في اشد مزالقه و اخطر حالاته .

يجهل الجاهل فيحلم عنه العاقل فيكون حلمه هذا تحديداً لكبرياء النفس ، و اشادة بعظمتها في الصفات و ترفعاً عن مقابلة الدني من الخصال و درساً عالياً لخصمه في الاخلاق ، و تحديداً لجهل ذلك الخصم عن الزيادة ، و

(١) تحف العقول ص ٧٤ .

(٢) تحف العقول ص ٨٨ .

(٣) تحف العقول ص ٧٩ .

في التأريخ والامثال أناس خلدتهم الحلم ليكونوا مثالا عاليا للناس .
والعرب القدماء يسودون الحلم و يذكرون في سبب ذلك : ان الحلم
سيد على نفسه ومن ساد على نفسه كان جديراً بالسيادة على غيره . ويقول
الامام الصادق (ع) : « لا يعد العاقل عاقلاً حتى يستكمل ثلاثاً : اعطاء الحق
من نفسه على حال الرضا والغضب ، وأن يرضى للناس ما يرضى لنفسه ،
واستعمال الحلم عند العثرة»^١ . ويقول : « كفى بالحلم ناصراً ، و اذا لم تكن
حليماً فتحلِّم»^٢ ، و التحلم هو التشبه بالحلماء في التغاضي عن المهفوات ،
والترفع عن المقابلة والتكلف لتهدئة الغضب ، ويسمى في لسان الشريعة
« كظم الغيظ » ، و أثر التحلم رد عادية الغضب بعد الثورة ، و أثر الحلم منع
النفوس عن الغضب ، و صدها عن الانتقام اذا غضبت ، فالتحلم أقل شأناً
من الحلم ، ولكن الاستمرار عليه يكسب الانسان صفة الحلم .

الكبرياء والتواضع:

يتقابل الهران المتنافسان ، فينتفش كل واحد منهما وينتفخ و
يتطاول ويرتفع ليثبت لخصمه انه اعظم قدرة و اشد صولة فاذا وقعت المصادمة
خفيت المظاهر الكاذبة و ظهرت الحقائق و شغل الخصمان بالواقع عن
الخيال ، و كانت الغلبة للقوة ، فجر ثومة التكبر ثابتة في غريزة الحيوان
والانسان ، و اذا كان بينها فرق من جهة فهوان الحيوان يتخذ الكبر سلاحا
عند لقاء العدو والانسان العاقل ينتفش وينتفخ لغير سبب يوجب ذلك ،
فالحيوان اعرف من اخيه بمواضع التكبر .

(١) تحف العقول ص ٧٧ .

(٢) الكافي الحديث ٦ باب الحلم .

«ما من احد يتيه إلا من ذلّة يجدها في نفسه»^١ لماذا يتكبر الانسان اذا كان كبيراً في نفسه، ولماذا يتعاطم اذا كان عظيماً في صفاته، انه - من دون ريب - يجد في نفسه نقصاً محسوساً وضعة بيّنة، وهو يريد ان يتم ذلك النقص ويسد ذلك الفراغ بهذه العظمة المكذوبة، ولكنه بعمله هذا يضيف الى نقصه الاول نقصاً اكبر منه، ويضم الى ضعته الاولى ضعة اشد منه و اذا كان حب الذات يجلب عينيه عن ان تبصر شيئاً من ذلك فان للناس الآخرين عيوناً غير محجوبة. ولعل في المساكين الذين يترفع عن القرب منهم ويأنف من النظر الى أسماهم من هو أشرف منه نفساً وأزكى عملاً وأطيب ذكراً. ويتحدث الامام الصادق عن المتكبر أيضاً فيقول: «لا يزال اعظم الناس في نفسه واصغر الناس في عين الناس»^٢ يعيش المتكبر ثقيل الظل على الناس جميعاً حتى على المتكبرين من نظرائه، واذا شك في ذلك فلينظر مقت الناس للمتكبرين الآخرين، وليتأمل في نفسه فانه يجدها في عداد الماقتين لهم أيضاً، وليجعل ذلك مقياساً له ان كان ممن يعقل او ممن يجب أن يكون عاقلاً، وإلا فليفقد العزة من حيث انه يريد العزة، ومن نازع الله في رداءه فهو جدير بهذه العاقبة.

ليثق ان الناس لا يهتمهم من امره قليل ولا كثير، اما هؤلاء المتملقون الذين يظهرون له الانقياد والخضوع فهم دهاة مكرة، يقتنصون من ماله بهذا الخضوع ثم يسخرون من عقله ومن كبريائه، ولو تعاهد المسكين نفسه بغير طريق التكبر لبلغ العظمة النفسية الصحيحة ببعض هذا العناء. الكبر مبدأ سلسلة من الجرائم، و فاتحة سجل من الآثام، واية جريمة خلقية او قانونية يتوقف المتكبر عن اقرارها اذا هي وافقت امنيته، واية فضيلة يسعى الى اكتسابها اذا كانت تصادم رغبته او تزاحم سلوكه، وبذرة

(١) الكافي الحديث ١٧ باب الكبر.

(٢) الحديث ١٦ من المصدر نفسه.

الكبر ليست محدودة النتائج ، ولا مأمونة العاقبة ، فقد تثمر اشد أنواع الكبر و توصل الى أبعد مراحلها اذا صادفت نفساً مرنة و جهلاً محفزاً .

يتكبر الانسان على أخيه الانسان لانه فقير فيجره ذلك الى التكبر على الله وقد يجره الى الجحود والكفر وهي المرحلة الاخيرة من الكبر، ويقول فيها الامام الصادق (ع) «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من الكبر»^١ والكبر هو الخلق النفساني الذي يتصف به المتكبر، والتكبر هو الاعمال التي تنشأ عن هذه الصفة النفسانية، وكما ان الكبر سبب لسقوط الفرد في الاخلاق فانه سبب لانحطاط الامة في الحضارة، لان المتكبر يجد نفسه فوق كل أحد، ويرى ان مصلحته الخاصة مقدمة على كل شيء، وهو يحقد على الغير اذا أنكر عليه ذلك. فاذا شاع التكبر في الامة نشأت الضغائن بين الافراد، و دبّ الخلاف بين الجنود، و بعدت الشقة بين القادة، وأصبحت الامة أمماً متعددة بتعدد المتكبرين من أبنائها، و تفرقت كلمتها الى غير اجتماع.

يغالط المتكبر اذا ادعى أنه يحترم القانون، لأنه يعتقد ان ارادته أسمى من جميع مواده و فصوله، و لعله يحترم النظام حين يكون وسيلة لحفظ حقوقه الخاصة، و لعله يرى ان واجب النظام ذلك لا غير.

والفضيلة التي تقابل الكبر هي التواضع، وهي ان يحترم للناس حقوقهم ويعرف لهم منازلهم ومراتبهم، و أن يحتفظ لنفسه بمنزلتها الخاصة، فلا يجحد فضيلة لفاضل، ولا يحتقر شرفاً لشريف، ولا يدعي لنفسه صفة كاذبة، فان في الحقيقة غنى عن الخيال، و ليس عليه وراء هذا ان يتنازل عن شيء من حقوقه لأحد من الناس.

من التواضع المدوح ان يتسامح الانسان في بعض الحقوق التي لا يضر قوائها بشرفه، و لكنه ليس يواجب. اما الحقوق الواجبة للنفس والتي

يكون فوتها قادحاً في الشرف ونقصاً في المروءة فان التنازل عنها ذلة يجب على الانسان ان يتنزّه عنها، وهي الرذيلة الثانية التي تقابل التواضع من جانب التفريط .

(من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس ، و ان تسلم على من تلقى، وأن تترك المراء و ان كنت محقاً، ولا تحب أن تحمد بالتقوى) ^١ وهذا الحديث يعرض أمامنا نوعين من التواضع :

- ١- التواضع في السلوك والأعمال وهو علاج التكبر.
- ٢- التواضع في النفس وهو يقابل صفة الكبر فيها، و علامة هذا التواضع أن لا يجب أن يحمد بالتقوى. قد يستعظم الانسان نفسه، أو يستعظم صفة من صفاتها، فيسمى معجباً، و يتطور العجب فيقيس المعجب نفسه بغيره، و يحكم لنفسه بالتفضيل ويطمئن الى هذا الحكم فيكون كبيراً، فالكبر تطور في العجب، و قد ينشأ الكبر أو التكبر من أسباب نفسية أخرى، ولكن العجب أهم مصادره و أعظم ينابيعه، و العلاج الصحيح لهذا الداء أن تستأصل البذرة، و أن تقتل الجرثومة و علامة ذلك : (أن لا تحب أن تحمد بالتقوى).

الصدق، والكذب

وصفان يقعان على القول، و يضافان الى القائل، و قد يتعديان الى غير القول من الاعمال والصفات، و الباحث الخلقى يريد منها الخلقين النفسانيين الذين يصدر عنهما ذلك السلوك .

الصدق و الكذب صفتان للقائل أو للقول، و لكن الاعتياد عليهما يغرس في النفس ملكة الصدق أو الكذب، و هي التي يقصدها الخلقى في

بجته.

(١) الكافي الحديث ٦ باب التواضع.

وإذا اختلف علماء العربية في تعريف الصدق والكذب فلا ينبغي وقوع مثل هذا الاختلاف بين علماء الاخلاق لان غاية العالم الخلقى أن يصل الانسان الى الكمال، والكمال في القول أن يطابق الحقيقة والاعتقاد معاً، ولأن الاعتدال الذي يبحث عنه علم الاخلاق هو خضوع الانسان في سلوكه للحكمة، والحكمة هي: (معرفة حقائق الاشياء على ما هي عليه) فالصدق الذي يبحث عنه الخلقى، والذي يعده من رؤوس الفضائل لابد له من مطابقة الواقع، ولا بد له من مطابقة الاعتقاد.

قد يعتقد الانسان بشيء وهو مخطيء في ذلك الاعتقاد، فاذا أخبر بما يوافق عقيدته هذه كان قوله صادقاً عند بعض علماء العربية، وقد يكون معذوراً عند الفقيه، لأنه لم يتعمد المخالفة والكذب، ولكنه ليس من الصدق الذي يعد في علم الاخلاق فضيلة.

وليس الصدق من فروع قوة معينة، فقد يضاف الى الشجاعة، وقد يكون من العفة، وقد ينتسب الى الحكمة، وقد يشترك في انتاجه أكثر من قوة واحدة، والكذب نظيره في ذلك.

الصدق فضيلة، ومن الوهن بالكاتب أن يدل على كون الصدق فضيلة، وإذا كان فضل الصدق مفتقراً الى الاثبات فأى شيء بعده يستغني عن الدليل، الصدق فضيلة وكفى، حكم لم يختلف في صحته عقل، ولم يخالف فيه نظام، أما الشرائع السماوية فان وجوب الصدق هو الحكم الاول من أحكام كل شريعة: (إن الله عزوجل لم يبعث نبيا الا بصدق الحديث، وأداء الامانة الى البر والفاجر)^١.

والصدق أهم القواعد التي يقوم عليها بناء المجتمعات، و تنتظم بها وحدات الامم، واي بناء يبقى للمجتمع، و اية وحدة تبقى للامة اذا انهارت دعامة الصدق بين الافراد، وفقدت الثقة من كل قائل، وكيف يعامل

(١) الكافي الحديث ١ باب الصدق.

التاجر في تجارته، والطبيب في عيادته بغير الصدق، وكيف يوثق بعلم العالم وعدل الحاكم، وانصاف الراعي ووفاء الرعية، وكيف يتم كل شيء بغير الصدق.

وعلى هذا الأساس يمكننا ان نجعل الالتزام بالصدق دليلاً على رقي الامة، وان مقدار رقيها بمقدار التزام افرادها بالصدق في اعمالهم واقولهم و انحطاطها بمقدار ما يفشون بينهم من الكذب، يستحيل على الامة أن تتقدم في حضارتها ومعارفها اذا كانت متأخرة في الاخلاق، و اشد الاخلاق تأثيراً في ذلك هي الاخلاق العامة التي تؤلف بين الافراد وتربط بين الجماعات، والصدق من أهم هذه الاخلاق.

وللصدق أقسام عديدة، و كل واحد من هذه الاقسام فضيلة و يقابله الكذب في جميع ذلك:

١- الصدق في القول:

اللسان ترجمان النفس، وخطيب الجوارح و أمين الانسان على تبليغ آرائه و افكاره، واللسان هو السفير بين الفرد و بين الامة، و هو الصلة التي تربط بين المجتمعات، و تصل بين الامم، و اللسان دليل شرف الانسان ورائد عقله و مروءته، و من الجدير بهذه الجارحة العظيمة ان تعرف ما لها من الكرامة فتؤدي امانتها باخلاص و لا يحصل لها الاخلاص في الاداء إلا بالصدق.

يقول الامام (ع) «من صدق لسانه زكى عمله»^١ و يقول: «لا مروءة لكذوب»^٢ الكذب ملق في اللسان يستبيحه الجاهل لقضاء حاجة و بلوغ مقصد، والكذب تلون في الحديث تسببه ضعة في النفس، و ضعف في الارادة، فلا يمكنه ان يلتزم بالحق فيما يقول، لا مروءة لكذوب، و أي مروءة

(١) الحديث ٣ من المصدر السابق.

(٢) تحف العقول ص ٩٢.

للإنسان إذا أساء إلى شرف نفسه، و أي ثقة للغير به إذا خان أمانة نفسه، و حسب الكاذب جهلاً أن تكون حاجته أعز عليه من شرفه، و حسب ضعة أن يتعرض للعنة الله و لعنة القانون الأدبي .

أما الذي يكذب هازلاً فقد يكون أشد جهلاً و أكبر جريمة لأنه يهزأ بمحرمات الله و حرمت الاخلاق، و الكاذب الجاد قد يتخفى بجريته فلا يطلع عليها السامع ولا تسلب ثقته من النفوس، أما الهازل فهو مهتوك الحرمة لأنه متجاهر بالاثم و «المؤمن لا يخلق على الكذب ولا على الخيانة»^١ و سأله رجل ان يعلمه ما ينال به خير الدنيا والآخرة ولا يطيل عليه فقال له : «لا تكذب»^٢.

٢- الصدق في العزيمة - و يقابله التردد:

و يسمى هذا النوع من الصدق قوة الارادة، و قد سبق البحث عنها في فضيلة العدل، و سمعنا قول الامام الصادق (ع) في ذلك .

٣- الاخلاص: و هو الصدق في وجه العمل و يقابله الرياء .
لكل عمل من الأعمال غاية يقصدها الناس العقلاء حين يصدرون ذلك العمل فالذي يشرب الماء مثلاً يقصد بعمله رفع اذى العطش، و الذي يكتسب يهدف الى تحصيل المال، و الذي يتعبد لربه يقصد التقرب منه، و الزلفى لديه، و المخلص في عمله هو الذي يطلب بالعمل غايته الصحيحة التي يطلبها العقلاء، و يمكن ان يكون لبعض الاعمال غايات متعددة فيكون الاتيان بالعمل لاحدى هذه الجهات اخلاصاً اذا كانت كل واحدة من الجهات تعد غاية صحيحة، و المرأى هو الذي يغير وجه العبادة فيجعلها ذريعة لتحصيل الجاه و يطلب بها المنزلة عند الناس فهو يعبد الناس بعبادة الله، و يجعل الدين سلماً لاهوائه و اغراضه، و قد قال الامام الصادق (ع) في تفسير

(١) تحف العقول ص ٩٠ .

(٢) تحف العقول ص ٨٨ .

قوله تعالى. ليلوكم ايكم احسن عملاً: «ليس يعني اكثركم عملاً، ولكن اصوبكم عملاً، واما الاصابة خشية الله، و النية الصادقة والخشية، ثم قال الابقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل، والعمل الخالص الذي لا تريد ان يحمذك عليه احد إلا الله، والنية افضل من العمل»^١ النية الصادقة هي الغاية الصحيحة التي يقصدها الانسان عند العمل، وهي التي حكم الامام بتفضيلها على العمل في آخر الحديث، والعمل الخالص في رأي الامام (ع) هو ما كان الله غايته الاولى والاخيرة، و علامة هذا الاخلاص ان لا يريد ان يحمده على عمله من احد سوى الله.

والاخلاص لا يقبل المزاحمة في الغاية حتى بعد اتمام العمل، فاذا احال الانسان وجه النية فقد احال وجه العبادة وغير صفة الاخلاص، و لذلك كان الابقاء على العمل حتى يخلص اشد من العمل، ويقول (ع): «كل رياء شرك، انه من عمل للناس كان ثوابه على الناس، و من عمل لله كان ثوابه على الله»^٢ ويقول: «الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله انما يطلب تزكية الناس، يشتهي ان يسمع به الناس فهذا الذي اشرك بعبادة ربه» ثم قال: «ما من عبد اسر خيراً فذهبت الايام ابدأ حتى يظهر الله له خيراً، و ما من عبد يسر شراً فذهبت الايام ابدأ حتى يظهر الله له شراً»^٣.

المرائي مشرك لأنه يعبد أكثر من معبود واحد، و المرائي منافق لانه يظهر مالا يبطن و يلبس السيئة ثوب الحسنة، و المرائي ممقوت عند الله لانه يجعل الله ذريعة لجرم و وسيلة لاثم، وهو ممقوت عند الناس لانه يخادعهم بما لا يعلمون. ولا بد و أن يكشف الحجاب يوماً و يبرز المستور.

(١) الكافي الحديث ٤ باب الاخلاص.

(٢) الكافي الحديث ٣ باب الرياء.

(٣) الحديث ٤ من المصدر المتقدم.

ثوب الرياء يشف عما تحته فإذا التحفت به فانك عاري والمرائي كاذب حتى عند نفسه وان غالطها بالعلل، ومآها بالامل: «ما يصنع احدكم ان يظهر حسناً ويسر سيئاً أليس يرجع الى نفسه فيعلم انه ليس كذلك»^١.

٤- الصدق في العمل:

ويريدون به ان يكون ظاهر الانسان موافقاً لباطنه، فلا يقول مالا يعمل، ولا يعمل مالا يعتقد، ولا يعتقد غير الحق فيكون للحق سره و جهره، وللفضيلة قوله وعمله، وهذا المعنى ارفع شأناً من الاخلاص المتقدم، وفيه يقول الامام «ليس الايمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن الايمان ما خلص في القلوب وصدقته الاعمال»^٢. وهذا النوع من الاخلاص يشمل الصراحة ويقابل النفاق في القول والعمل. والنفاق يكون على اقسام: (١) النفاق في العقيدة: فالمنافق في عقيدته هو الذي يظهر الايمان و يبطن الكفر.

(٢) النفاق في العمل، وقد روى الامام الصادق (ع) عن جده النبي (ص) قوله في ذلك: «ما زاد خشوع الجسد على ما في القلب فهو عندنا نفاق»^٣.

(٣) النفاق في الصداقة والمعاشرة. وقد قال الامام الصادق (ع) فيه: «ولا خير في صحبة من لم يرلك مثل الذي يرى لنفسه»^٤.

٥- الوفاء:

ليس ايسر على الانسان من أن يتخذ الصديق او يعد الوعد، وليس

(١) الحديث ١١ من المصدر المتقدم.

(٢) تحف العقول ص ٩٢.

(٣) الكافي الحديث ٦ باب صفة النفاق.

(٤) تحف العقول ص ٩٠.

اعسر عليه من ان يفي بهذه الصداقة او ينجز ذلك الوعد مهما تقلبت الاحوال او تغيرت الحوادث .

كلنا نرغب ان يكثر اصدقائنا واصحابنا ، والابتسامه باب الحب والكلمه الطيبه مفتاح القلب ولكن القيام بشؤون الصداقه غير الرغبه فيها . و كلنا نود ان نعد غيرنا بالجميل في الوعد لذه وفي الشعور باحتياج الغير الى الانسان متعه . ولكن انجاز هذه العده غير النطق بها .

وفاء الانسان برهان ثباته على المبدأ . ودليل ثقته بنفسه ؛ لان ضعيف الارادة ووضع النفس لا يمكنه ان يفي بشيء . والامام الصادق (ع) يقول في وفاء الصديق : « اذا اردت ان تعرف صحه ما عند اخيك فاعضبه فان ثبت لك على الموده فهو اخوك وإلا فلا»^١ ويقول في الوفاء بالوعد : « لا تعدن اخاك وعداً ليس في يدك وفاؤه»^٢ ويقول : « عدة المؤمن اخاه نذر لا كفارة له فمن اخلف فبخلف الله بدأ ولمقته تعرض»^٣ يعد الانسان عدة فيرهن شرفه بهذا الوعد ويجس مروءته بهذا الميثاق ، فاذا اخلف بوعد فقد عرض شرفه للثلث ومروءته للانتقاص ، وقد ينتحل الاعذار الكاذبه ليسد بها هذا النقص فيضم الى الجريمه جريمه . والوفاء باب عظيم من الاخلاق يكفل للانسان النجاح في اعماله والفوز في معاملاته و يكسبه الثقة في النفوس والثقة بالنفس ، ومن اجتمع له هذان الوصفان فقد جمع الدنيا الى الآخرة .

٦- الصدق في مقامات الدين :

لاهل الدين في طريقهم الى الله مراحل يجتازونها بالمجاهده و يفوزون بعدها بالقرب والزلفى السالكون في هذه المراحل قليلون والواصلون

(١) تحف العقول ص ٨٧ .

(٢) تحف العقول ص ٩٠ .

(٣) اصول الكافي الحديث ١١ باب خلف الوعد .

الى الغاية بعض هذا القليل، والسالك يصل الى غايته حين يعين السبيل و يجتهد في المسير. ولكن قد يخطىء الساعي في السعي وقد يضل السالك عن الطريق فيبعد عن الغاية من حيث انه يتوهم القرب. ويضل من حيث انه يعتقد الهدى وقد قال الامام الصادق (ع): «العامل على غير بصيرة كالسائر على غير طريق فلا تزيده سرعة السير إلا بعداً»^١. وللطريق الذي يوصل الى هذه الغاية علامات وللسعي فيه حدود والانسان الصادق هو الذي عرف السبيل بعلاماته ثم اجتهد في السعي بحدوده. وغيره حاطب ليل وخابط عشواء.

وللامام الصادق (ع) في هذا الصدق كلمات كثيرة فهو يقول في مرحلة الخوف والرجاء: «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً. ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو»^٢. ويقول في مرحلة الحب: «الحب افضل من الخوف»^٣ ويقول: «من حب الرجل دينه حبه اخوانه»^٤ ويقول في مرحلة اليقين: «ان العمل الدائم القليل على اليقين افضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين»^٥ واقوال الامام الصادق (ع) في هذا الموضوع كثيرة نكل البحث عنها لمن يكتب في عرفان الامام الصادق (ع).

الحب والصدقة

نرى الشيء الجميل او الشيء الجيد فنجد في انفسنا صدى انفعالياً لذلك الجمال او لتلك الجودة، وهذا الشعور النفسي الذي نجده هو الاستحسان، وقد نحس في انفسنا بعد هذا الشعور انجذاباً رقيقاً او عنيفاً الى

(١) تحف العقول ص ٨٨.

(٢) الكافي الحديث ١١ باب الخوف والرجاء.

(٣) تحف العقول ص ٨٧.

(٤) الخصال للصدوق ص ٥.

(٥) الكافي الحديث ٣ باب فضل اليقين.

ذلك الشيء . وهذا الانجذاب هو المحبة ، فالاستحسان انفعال النفس عند شعورها بالجمال او الجودة . والمحبة هي رد ذلك الانفعال ، والاستحسان دعوة الجمال للنفس اذا شعرت به . والمحبة استجابة النفس لتلك الدعوة .

والمحبة في اولى درجاتها ميل الى الشيء المرغوب ، اذا كانت الرغبة فيه لا تكلفنا ان نتحمل المشاق في تحصيله ، فاذا اشتدت الرغبة اليه ، و كلفتنا ان نتحمل بعض المشاق سميت «وداً» و اذا بلغت اكثر من ذلك الحد سميت «حباً» و هو اسمى درجات هذا الاحساس . والعرفانيون يتجاوزون في المحبة هذا الحد فيجعلون لها درجات اخرى متفاضلة ، ولكل واحدة من هذه الدرجات مراتب متعددة .

يقول الفيلسوف : الحب ميل طبيعي الى المحبوب الملائم ، ويقول الاجتماعي : الحب صلة نفسانية متبادلة بين اليقين ورابطة متعادلة بين قلبين ، ويقول العارف : الحب قوة خفية تصير المعشوق جزءاً من العاشق . و قد تحيلها شيئاً واحداً لا يقبل التجزئة . ويقول الاديب : الحب اشراقه الروح على الروح ومصافحة القلب مع القلب .

اما الامام الصادق (ع) فانه يسميه الايمان حين يقول : «وهل الايمان إلا الحب» ! وقد علمنا ان الايمان الصحيح عند الامام (ع) هو معنى الانسانية الكاملة . والحديث على و جازته يدلنا على منزلة عظيمة للحب في رأي الامام الصادق (ع) ولكن علينا ان نعرف هذا الحب القدسي الذي يفسر الامام به الايمان .

من الاحكام التي لا تقبل التشكيك ان دوام كل عمل أو صفة يكون بمقدار ما لغاية ذلك الشيء من الدوام . والاهتمام به بمقدار ما لغايته من الاهمية . فالذي يطلب رجلاً لحاجة ينتهي طلبه اذا حصل منه على تلك الحاجة . والذي يقرأ كتاباً ليفهم معناه تنتهي قراءته اذا حصل منه على

الغاية، والحب احد هذه الاشياء التي تطلب لغاياتها، و تدوم بدوامها، و تكون شريفة او وضیعة بشرف الغاية او ضعفتها. فالذي يجب احداً لماله ينفد حبه اذا نفذ المال، والذي يجب شخصاً لغاية غير شريفة ينتهي حبه اذا حرم منها وقد ينقلب الحب بغضاً.

والاسلام دين المحبة الصادقة، والاخوة الدائمة. لا يعجبه هذا اللون المشوه من الحب، و بالاحرى هذا التدنيس لطهارة الحب. حب الشهوة الوضیعة والغايات السافلة.

الحب شريف لانه علاقة بين ارواح فيجب ان يكون شريف الخاتمة، والشريعة الاسلامية مثالية في جميع احكامها فيجب ان تكون مثالية في حبها. على ان هذا اللون محدود الغاية فلا يلتئم مع الالفة الدائمة التي يدعو اليها دين الاسلام.

الحب هو الصلة الأولى بين العبد وبين ربه، وهو العلاقة المتينة بين الانسان وبين دينه. فيلزم أن تكون الصلة بين المسلمين ظلاً لذلك الحب و قبساً من ذلك النور فان «من حب الرجل دينه حبه اخاه»^١. كما يقول الامام الصادق عليه السلام و«من حب الشيء حب جميع آثاره» كما تقول الفلاسفة. وليس الحب شيئاً يكال جزافاً بالمكاييل، ولا ينشأ مصادفة من غير سبب، يحب الانسان ربه لانه المنعم الذي اوجده بعد العدم. ثم كمله بعد النقص وهداه من الضلالة. و لانه الكامل المطلق الذي يجب ان يحب لانه كامل. و يحب الانسان دينه لانه الطريق الذي يصل به الى السعادة و الوسيلة التي تضمن له الفوز بالخير الاعلى. و يحب الانسان أباه لانه سبب وجوده و هو الكافل لتربيته. و يحب المسلم أخاه المسلم لانه عديله في الدين و شريكه في الكمال، و يحب الانسان اخاه الانسان لانه مثيله في الحقوق، و نظيره في استحقاق السعادة، هكذا ينظر الدين الاسلامي الى الحب، و

(١) مستدرك الوسائل الجزء الثاني ص ٣٦٩.

هكذا يجب ان يكون، «و هل الايمان إلا الحب» والعلاقة بين المتحابين اذا اقيمت على هذا الاساس تحطمت دونها كل غاية وسهلت في سبيلها كل وسيلة، وكانت متعادلة بينهما فيحس احدهما لصاحبه بما يحس به الآخر لانه صلة بين نفسين وبالاخرى بين عقليين. اما حب الشهوة فلا تكون له هذه الخاصة لانه صلة بين غريزة وجسد والجسد لا يحس بما يحس به القلب.

على ان حب الصديق لكماله يكون اكبر لذة واكثر اتصالا وبقاءً، لانها لذة عقلية. والقوه العقلية اكبر لذة لانها اقوى ادراكا واسمى غاية. و يدلنا على هذا انا نجد القلوب مجتمعة على حب الكمال اينما وجد وعلى تعظيم الكامل اينما حل و ان فصلت بيننا وبينه عشرات القرون، فالذي يحب «عنترة» لشجاعته او يحب «حاتما» لجوده لم يحبها لغرض يرجع الى قوة الغضب او الى قوة الشهوة، ولكنه يحبها لانها متصفان بصفتين من صفات الكمال، وهو يلتذ بهذا الحب كلما خطرت هذه الناحية في قلبه.

والصدقة مادة من مواد الاخلاق، والصديق صورة ترسم للانسان مستقبلة وتحدد له سعاده و كماله، وقد قال الشاعر العربي:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه

افكل قرين بالمقارن يقتدي
ينشأ الانسان وتنشأ معه غريزة التأسي وحب المحاكاة، وهو يعلى بها كثيراً من افعاله، ويبني عليها كثيراً من عاداته. يرتكب الانسان الجريمة لان نظيره قد ارتكب مثلها او اشد منها. ويعمل الاحسان لان امثاله يعملون ذلك. حتى الطفل فانه يصدر كثيراً من اعماله مجرد الاقتداء وحب المحاكاة وكم لهذه الغريزة من مظهر، وكم لها من نتيجة حسنة او قبيحة، وبديهي ان هذه الغريزة اذا قارنت الحب والصدقة كانت اشد تأثيراً في الانسان.

وقد اثبتت التجربة ان المجاورة والاتصال يؤثران حتى في

الجمادات .

كالريح آخذة مما تمر به ننتأ من النتن أو طيباً من الطيب
فن الجدير بالانسان ان يختار موضعاً لصداقته ، لانه يختار مادة
لأخلاقه ويضع رسماً لمستقبله وحداً لسعادته . من حقوق الحب
على الانسان ان يختار له موضعاً ، ومن حقوق النفس ان يختار
لها مهذباً . وقد قال الامام الصادق (ع) : « من لم يجتنب مصادقة الاحق
اوشك ان يتخلق باخلاقه »^١ . وقال : « لا تصحب الفاجر فيعلمك من فجوره »^٢
وللامام الصادق (ع) كلمات تتضمن قواعد مهمة في الصداقة نذكرها
من غير تعليق :

« لا خير في صحبة من لم يرلك مثل الذي يرى لنفسه » ، « اياك و
مخالطة السفلة فان السفلة لا تؤدي الى خير » ، « احب الاخوان على قدر
التقوى » ، « لا تعتد بمودة أحد حتى تغضبه ثلاث مرات » ، « عليك باخوان
الصدق فانهم عدة عند الرخاء ، و جنة عند البلاء » ، « صحبة عشرين سنة
قربة » ، « ضع امر اخيك على احسنه ، ولا تطلبن بكلمة خرجت من اخيك
محملاً » ، « الصفع الجميل ان لا تعاتب على الذنب ، والصبر الجميل الذي
ليس فيه شكوى » ، « لا تذهب الحشمة بينك وبين اخيك و ابق منها ، فان
ذهاب الحشمة ذهاب الحياء و بقاء الحشمة بقاء المودة » ، « احب اخواني
الي من اهدى الي عيوي »^٣ ، « اذا احببت رجلاً فاخبره بذلك فانه اثبت
للمودة بينكما »^٤ « انظر قلبك فاذا انكر صاحبك فان احدكما قد احدث »^٥ .

(١) امالي الصدوق ص ١٦٣ .

(٢) مصدر هذه الكلمات تحف العقول بين ص ٨٧ و ٩٣ .

(٣) الكافي الحديث ٥ باب من تجب مصادقته .

(٤) الكافي الحديث ٣ باب اخبار الرجل اخاه بحبه .

(٥) الكافي الحديث الاول من نوادر باب المعاشرة .

(٧)

(٧)

میزان الخلق الصحيح

میزان الخلق الصحيح

يطلبه بأعماده ومقاييسه، ولهذا فإن بعض الخلقين يعرف بعلم الاخلاق أشرف العلوم جميعاً لأنه يوصل أشرف الطرق إلى أشرف غاية، والحكمم الذي لا يقبل الشك فيه أنه علم الاخلاق من أشرف العلوم ومن أرقها، وأساسها معرفة النفس البشرية، والاشارة إلى مبادئها، وعلم الاخلاق رائد الانسان إلى السعادة ودليله على الخير الاكمل، وهو مرشد النفوس إلى الفاضل من الصفات والفاضل من الاعمال، ومن الجور النعيم ان تتعرقب منه اكثر من هذا. لعلم الاخلاق أسوة بأخواته من العلوم التي تطلب لغاياتها. عليه ان يهد السبل إلى الغاية ويوضح الطريق إلى المقصد، وعلى العبد ان يمشي في سبيلها، وأسوة بأخواته من العلوم، ويصف الفناء بجملة ما ليس عليه بعد هذا ان يصل إلى الغاية، فان حصول النتيجة شروطاً أخرى وراء معرفة المقدمات، قد يلحق بالانسان الهدف الذي يريد لأنه أساس التطبيق، أو لم يحسن استعمال العلاج،

(ع) الامام الصادق

(۷)

ويحبها رقلان انيه

«نهوه هوه شيه متابع متسه قيه نه»

(۵) رقلان اوله

والمقصود من علم الاخلاق هو العلم بالصفات والخصائص التي ينبغي ان يتصف بها الانسان لكي يتمكن من تحقيق السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة. وهذا العلم هو الذي يهتم بتربية النفس وتنظيمها وتوجيهها نحو الخير والابتعاد عن الشر. وعلم الاخلاق هو العلم الذي يدرس سلوك الانسان في حياته اليومية، وكيف يمكنه ان يتصرف بطريقة صحيحة وأخلاقية في جميع المواقف التي تواجهه. وعلم الاخلاق هو العلم الذي يهتم بتربية النفس وتنظيمها وتوجيهها نحو الخير والابتعاد عن الشر. وعلم الاخلاق هو العلم الذي يدرس سلوك الانسان في حياته اليومية، وكيف يمكنه ان يتصرف بطريقة صحيحة وأخلاقية في جميع المواقف التي تواجهه.

(٧)

ميزان الخلق الصحيح

غاية علم الاخلاق أن يوصل الانسان الى الكمال الاعلى الذي يطلبه بأعماله وصفاته، ولهذا فان بعض الخلقين يسرف فيقول: «علم الاخلاق أشرف العلوم جميعاً لانه يوصل أشرف مخلوق الى أشرف غاية». والحكم الذي لا يقبل الشك فيه أن علم الاخلاق من أشرف العلوم ومن أرقاها.

علم الاخلاق رائد الانسان الى السعادة ودليله على الخير الاعلى، و هو مرشد النفوس الى الفاضل من الصفات والفاضل من الاعمال. ومن الجور الذميمة ان تتربص منه اكثر من هذا. لعلم الاخلاق أسوة بأخواته من العلوم التي تطلب لغاياتها. عليه ان يمهّد السبيل الى الغاية ويوضح الطريق الى المقصد. وعلى العالم الخلق ان يكون طبيباً ماهراً يعين الداء بدقة و يصف الدواء بمهارة وليس عليه بعد هذا ان يضل الضال أو يضل الواصل. فان لحصول النتيجة شروطاً اخرى وراء معرفة المقدمات، قد يخطيء الانسان الهدف الذي يريده لانه أساء التطبيق، او لم يحسن استعمال العلاج،

والمحاسب عن هذا التقصير هو الانسان نفسه، لا علم الاخلاق، وقد اوضح الامام هذه الناحية بقوله: «ان نفسك رهينة بعملك»^١، و قوله: «قد جعلت طبيب نفسك، وبيّن لك الداء وعرفت آية الصحة و دلت على الدواء فانظر كيف قيامك على نفسك»^٢ علم الاخلاق هو الوسيلة التي تكشف للانسان الداء، وهو الذريعة التي يعرف بها آية الصحة، والمرشد الذي يدلّه على الدواء، ثم يوكل استعماله اليه فلينظر كيف قيامه على نفسه. اما قول الامام في هذا الحديث: «جعلت طبيب نفسك» فانه يجري على استعارة جميلة وكثيراً ما كررها الخلقون في كلماتهم. وبين الطب وعلم الاخلاق نواحٍ كثيرة من وجوه الشبه.

للانسان صورة ظاهرة يفحصها الطبيب من حيث الصحة والمرض، وله صورة باطنة يبحث عنها الخلق من حيث التوازن والانحراف، ولكل من هاتين الصورتين طوارئ تخرجها عن الاستواء والتوازن في صفات الجسم الذي يطلبه الطبيب لانه صحة له نظير في النفس يطلبه الخلق لانه كمال والانحراف الذي يدافعه الطبيب عن البدن لانه مرض جسمي. يجارب الخلق مثله في النفس لانه مرض روحي، واذا كان حصول الكمال النفسي سعادة للانسان كما يقول الخلقون، فان حصول الصحة سعادة للبدن كما يقول الاطباء، وكثيرا ما سرت امراض البدن الى النفس وتعدت امراض النفس الى البدن والمتأخرون من الخلقين والنفسيين يقولون: «العقل الصحيح في الجسم الصحيح». الله يوفقنا لهذا العلم العظيم.

الانسان هو طبيب نفسه وهو المسؤول عن تركيتها وتهذيب اخلاقها ولكن على علم الاخلاق ان يدلّه على آية (الصحة) وأن ينصب له ميزانا عادلا يميزه بين صحيح الملكات وفسادها، وخير الاعمال وشرها،

(١) الكافي الحديث ٨ من نوادر باب الاستدراج.

(٢) الحديث ٦ من المصدر المتقدم.

ليألف الحسن منها و يجتنب القبيح، وقد علمنا في الفصول السابقة ما يتكفل لنا بذلك، فقد عرفنا أن فضائل الملكات اوساط وذرائلها انحرافات و اطراف، و عرفنا أن المقياس الذي تعلم به هذه الاوساط هو الشريعة الالهية المعصومة، و بهذا الميزان نستطيع أن نعرف الخلق الصحيح فنوجه اليه في سلوكنا، وأن نحكم على العمل بأنه خير وانه صواب اذا وافق الخلق الكريم. ولكننا قد نخطىء الهدف المقصود و ان كنا قد علمنا جميع ذلك، و طبقناه على اعمالنا و عاداتنا.

قد نعين الاوساط التي حكمنا بانها فضائل، و نميز الاعمال التي تختص بها هذه الاوساط ثم نسعى الى تحقيقها حتى يصبح الخلق صفة من صفاتنا، و نحن مع هذا الجهد كله لم نتصف بالفضيلة لاننا قد اضعنا الغاية التي من أجلها حببت هذه الفضيلة.

ليست الاوساط بمطلقها فضائل، فقد تطلب هذه الاوساط لغير غاياتها، و الخلق الصحيح ما طلبت به الغاية الصحيحة. و القاعدة التي يذكرها الخلقيون لذلك: أن يتصف الانسان بالفضيلة لانها فضيلة. و يجتنب القبيح لانه قبيح. اما الامام الصادق (ع) فيقول في ذلك: «من سرتة حسنته، و ساءتة سيئته فهو مؤمن»^١ الحسنة هي العمل الخير اذا قصد به الوجه الصحيح، و السيئة عمل الشر، و عمل الخير ايضا حين يقصد به غاية غير صحيحة. فاذا سر الانسان بحسنته و استاء من سيئته كان هذا دليلا على تركيز الخلق الصحيح في نفسه لان السرور هو التذاذ الانسان حين يرضي رغبة من رغباته. و المساءة هي التأم الذي يحصل عند انقماص الرغبة. و هذا الذي يذكره الخلقيون هنا لا ينافي ما تقدم في تحديد معنى الفضيلة و انما هو شرح و ايضاح.

الفضيلة أن تعادل الملكة النفسية فلا تشد ولا تنحرف. و اذا مالت

(١) اصول الكافي الحديث ٦ باب المؤمن و علاماته.

أصول العلاج عند الخلقين

«اقصر نفسك عما يضرها قبل أن»
«تفارقك ، واسع في فكاكها كما تسعى»
«في طلب معيشتك فان نفسك رهينة»
«بعملك.»

الامام الصادق(ع)

بها الأهواء واستخدمتها القابات فقد شئت والحرفث والفتيلة أن تير
 النفس في محاسنها وفي عفتها على هدى العقل وإرشاده، فإذا قصدت
 بالعمل أو بالصفة غاية وضعية فقد بعدت عن حكمة العقل **(٨)**
 وإرشاده. والفتيلة أن يتوسط الإنسان في ملكاته، وأن يتسامى في غاياته،
 أما هذا الذي تحدثنا عنه فهو باطل يشبه الحق، وخلال يشبه الهدى،
 وشبه تير توب الحنة.

والمعاليها

زيتقنك امدن

«أ رأيت لعمري إذ تلسفنا صفة»
 «بمعنا لا لهدلنا رغوتنا، تلسفنا»
 «فبني تلسفنا ناك تلتشبعه بيله رغ»
 «. تلمن»

(١) قوله تعالى

والسر في هذا الحب العجيب ان هذه الادواء تكفل للنفس بعض مشتبهاتها وتحقق لها بعض ميولها ورغباتها، والنفس تألفها لهذه اللذات الزائفة، وإن كانت ادواء فاتكة وسموماً قاتلة، وقد يبلغ الأمر ببعض النفوس الوضيعة أن تنفر من الخلق الكريم لأنه يمنعها عن تحصيل هذه اللذات.

ادواء الجسد في الاكثر تصحب الآما محسوسة والانسان يمجتها لانه يحس بالآمها، اما ادواء النفس فلا تكون كذلك لانها تسبب الآما معنوية و انحطاطاً كمالياً، وقصير النظر لا يعبأ بهذا النقص، ولا يعتني بهذا الالم، لانه يجهل ما يسميه الخاصة كمالاً او رقيماً معنوياً.

(١) و اذن فأول علاج يصفه علم الاخلاق لهذه الادواء هو العلم لانه يرفع النفس من هذه الضعة، وينقذها من هذا الانحطاط، وهو الحاسة الدقيقة التي يدرك بها الانسان لذة الكمال وألم الشقاء، وقد سمعنا احاديث الامام الصادق (ع) في العلم.

(٢) للباحث الخلقى غايتان متساويتان في الاهمية: (١) تهذيب الملكات السافلة واحالتها الى اخلاق صحيحة. (٢) احتفاظ الانسان باخلاقه الصحيحة بعد التهذيب. فالاعتدال الخلقى جهاد في جميع ادواره، و هو جهاد لانه خروج على غريزة وتمرد على قوة، و هو جهاد لانه ارغام ارادة وقسر عادة، و هو جهاد لانه حمل للنفس على ما تكره، و صرف لها عما تحب، و هو جهاد لان الفضائل اوساط، و معرفة هذه الاوساط تستدعي حزمًا والاقامة عليها تستدعي عناءاً، و هو قبل هذا كله جهاد لانه بحث عن عيوب النفس المحبوبة، و الحب كما في المثل المشهور: يعمي ويصم. و اذا كانت للنفس رغبات و اهواء تراحم الخلق الصحيح في ابتداء تكوينه، فان لها نظائر من هذه الرغبات تراحم الخلق الصحيح في اوقاته الاخرى والنفس من اجل هذه الرغبات المتزاخمة في جهاد متواصل.

ومعنى هذا ان العلاج الخلقى في جميع ادواره يعتمد على الصبر والثبات، فالصبر تغرس الفضيلة في النفس، والصبر هو الذي يتعاهدها لتنمو وينمىها والصبر هو العدة التي يتدبرع الانسانُ بها امام الاخطار، وهو الخلق الاول الذي يجب تهذيبه ليكون عوناً على تهذيب غيره، وهذا هو معنى قول الامام الصادق (ع): «الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد، فاذا ذهب الرأس ذهب الجسد كذلك اذا ذهب الصبر ذهب الايمان»^١ وهو معنى قوله ايضاً «رأس طاعة الله الصبر والرضا عن الله فيما احب العبد او كره»^٢.

الصبر ووقوف النفس امام الشدائد، وثباتها عند هجوم النوازل فهو فرع من فروع الشجاعة، والشدائد التي تثبت لها النفس قد تكون من الامور الخارجة عن النفس كصروف الدهر وآلام الحياة، وقد تكون من الامور المتعلقة بالنفس كالآلام التي تحصل من مكافحة طغيان الشهوة وجموع الغضب، والثبات عند جميع هذه الآلام شجاعة.

الصبر على جهاد قوة الشهوة شجاعة لا عفة، ولكن ثمرة هذا الجهاد هي العفة، والصبر على كفاح قوة الغضب شجاعة وثمره هذا الكفاح شجاعة اخرى.

في العلاج الخلقى مصاعب، وهو جهاد مستمر، ولكن هذه المصاعب لا تحد من قدرة الانسان شيئاً فالشخص حين يصدر العمل قادر على تركه، وهو حين يتركه مختار في فعله.

في وسع الانسان ان يفكر في غايات اعماله فيحترز عن العمل القبيح، و اخيراً عن الخلق الذمى. في وسعه ان يفكر في غاية العمل قبل اصداره، ثم هو في سعة من الفعل او الترك، لأن له ارادة واختياراً. و اذا استطاع ان يخالف الملكة في المرة الاولى كانت مخالفتها في المرة

(١) الكافي الحديث ٢ باب الصبر.

(٢) الكافي الحديث ١ باب الرضا.

الثانية عليه اسهل، وهى في المرة الثالثة اخف مؤونة واكثر سهولة. و هكذا تأخذ الشدة بالضعف وتعود الملكة الثابتة حالة زائلة، ويصبح الخلق السيء اثرأ بعد عين.

وليحذر ان تغلبه العادة الاولى قبل ان يكمل التمرين على مخالفتها، فانها اذا غلبته مرة افسدت عليه كثيراً من عمله واحتاج الى كفاح جديد، والامام الصادق (ع) يشير الى هذا الطريق من المجاهدة بقوله «قف عند كل امر حتى تعرف مدخله من مخرجه قبل ان تقع فيه فتندم»^١ وقوله: «اياك ومرتقى جبل سهل اذا كان المنحدر وعرأ»^٢.

(٣) في وسع الانسان الحازم ان يقف من نفسه موقف المحاسب الشحيح، فيستعرض صفاتها بالنقد والتمحيص، وسيوقفه الفحص على مواضع الخلل من ملكاته، ومن السهل عليه بعد هذا ان يوجد في نفسه شوقا الى الفضيلة التي تباين ذلك الخلق السيء الذي عرفه من نفسه، فاذا اوجد في نفسه هذا الشوق فقد تم له كل شيء

اما معرفة عيوب النفس فسندكر لها طرقا عديدة بعد هذا، واما الشوق الى الفضيلة فسيبله الفكر.

ليحدث الانسان نفسه بمحاسن تلك الفضيلة، وما تعقبه من آثار طيبة، وعاقبة حميدة وما يناله اصحابها من مكانة سامية وشأن كبير، ليحدث نفسه بذلك، وليثق ان الشوق يحصل له قطعاً، لأن النفس تحب الكمال وتطمح الى الارتقاء، ومن الخير له ان يطيل التفكير بذلك، لتثبت الرغبة ويتأكد الميل.

و اذا تم للانسان النجاح في هاتين المرحلتين فليجتهد بعد هذا في الاعمال التي توافق الفضيلة التي اشتاق اليها، وكلما تكرر العمل

(١) تحف العقول ص ٧٤.

(٢) تحف العقول ص ٩٠.

ثبتت العادة الجديدة، وانهار بناء الخلق القديم .
 وقد قال الامام الصادق (ع) في المرحلة الاولى من هذا العلاج:
 «أنفع الاشياء للمرء سبقه الى عيب نفسه»^١ وقال في المرحلة الثانية منه:
 «التفكير يدعو الى البر والعمل به»^٢ وقال في باب الزهد: «وانما ارادوا
 بالزهد الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة»^٣ والأئمة من اهل البيت (ع) كثيراً ما
 يعتمدون هذا الطريق في تهذيب الاخلاق، وقد قدمنا للقارئ نموذجاً
 صغيراً من كلمات الامام الصادق في ذلك .

(٤) ذكر علماء الاخلاق لمعرفة الانسان عيوب نفسه طرقاً متعددة
 نشير الى بعضها فيما يأتي :-

(أ) الخلقاء والأصحاب:
 يحاول الانسان أن يرى صورته الظاهرية فيمتنع عليه أن يراها بغير
 المرأة، و يحاول ان يطلع على عيوب نفسه فيتعذر عليه ذلك بغير الصديق،
 صديقك غيرك فلا يصعب عليه ان يطلع على نقائصك، وقد جعله الحب
 الصحيح كاجزاء منك فهو لا يخفي عليك شيئاً تكرهه من نفسك، «ولا خير في
 صحبة من لم يركل مثل الذي يرى لنفسه»^٤ ولذلك شرطوا أن يكون الصديق
 من اهل الامانة والدين، وقد سمعنا قول الامام الصادق (ع): «أحب اخواني
 الي من اهدى إلي عيوني»^٥، وهو يقول ايضا: «من رأى اخاه على امر يكرهه
 فلم يرده عنه وهو يقدر عليه فقد خانته»^٦.

(ب) اجتنب ما تعده قبيحاً من غيرك :

(١) تحف العقول ص ٨٩ .

(٢) الوسائل الحديث ٥ باب استحباب التفكير من كتاب الجهاد .

(٣) الكافي الحديث ٥ باب الزهد .

(٤) تحف العقول ص ٩٠ .

(٥) الكافي الحديث ٥ باب من تجب مصادقته .

(٦) امالي الصدوق ص ١٦٢ .

تنظر الى الناس الآخرين فترى عيوباً كثيرة تظهر في أعمالهم و اقوالهم ، فاذا أردت اصلاح نفسك فاجتهد أن لا تعمل نظير تلك الاعمال ولا تفكر في وجود تلك النقائص فيك ، فان النفس تنكره اذا كان خفياً ، و تعتذر عن ارتكابه اذا كان ظاهراً ، فتضع من منك الفرصة ، و تذهب عليك الوقت .

(ج) استفد من لسان عدوك ما خفي على عين صديقك .

قد يستر الحب بعض نقائصك على الصديق ، و قد يتجاهل بعض عيوبك حذراً من اساءتك ، و لكن العدو لا تخفي عليه نقائصك لانه يراعيك بعين ساهرة ، و هو لا يختشي من ان يسيىء اليك ، فاجتنب عما ينسب اليك من الصفات . و الافعال و لا يضررك ان يكون كاذباً اذا برأت نفسك من العيوب .

(د) اذا اتهمت نفسك بخلق ذميم و أردت موقع هذه التهمة من الصحة فحاول ان توجده عملاً يخالف ذلك الخلق ، فاذا صعب عليك العمل فاعلم ان ذلك الخلق من صفاتك .

(هـ) تستطيع النفس ان تخفي نقائصها على الانسان ، و لكنها لا تستطيع ان تخفي عليه ميولها و اهواءها ، و هذا الهوى أثر لازم للخلق السيسىء فاذا خفيت عليك نقائصك فاجتنب اقرب الامرين الى هواك ، و يريدون من الامرين الفعل و الترك .

٥- الخوف و الرجاء

الخوف انفعال نفساني يحصل للانسان او للحيوان حين يتوقع صدور أمر يكرهه أو فوات شيء يحبه، وهو احدى الغرائز التي تولد معه و تنشأ و تصحبه في جميع احواله ، و كم جلبت له هذه الغريزة من خيرات ، و كم جنت عليه من شروره و الرجاء هو انتظار النفس حصول امر ترغب فيه ، و موضع الخوف و الرجاء في الاكثر هو الشيء اذا كان مشكوك الوقوع . و للانسان بين هاتين الملكتين شؤون و اطوار ، فقد يشتد به الخوف حتى يكون

يأساً، وقد يفطرط به الرجاء حتى يكسبه تسامحاً واهمالاً وقد يعتدلان فيكونان مزيجاً خلقياً يبعث الى العدل ويرشد الى الخير، وقد قال الامام الصادق (ع) في ذلك: «أرج الله رجاءاً لا يجزئك على معاصيه، وخف الله خوفاً لا يؤيسك من رحمته»^١ وقال: «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاراجياً، ولا يكون خائفاراجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو»^٢..

الخوف والرجاء صفتان نفسانيتان ولكنها لا يثمران الخير حتى يكون لهما مظهر في السلوك وتأثير في العمل هذا.

الخوف العملي اذا اشتد يسمى عند العلماء الخلقين ورعاً. واذا اشتد الورع يسمى تقوى: «وان قليل العمل مع التقوى خير من كثير بلا تقوى»^٣.

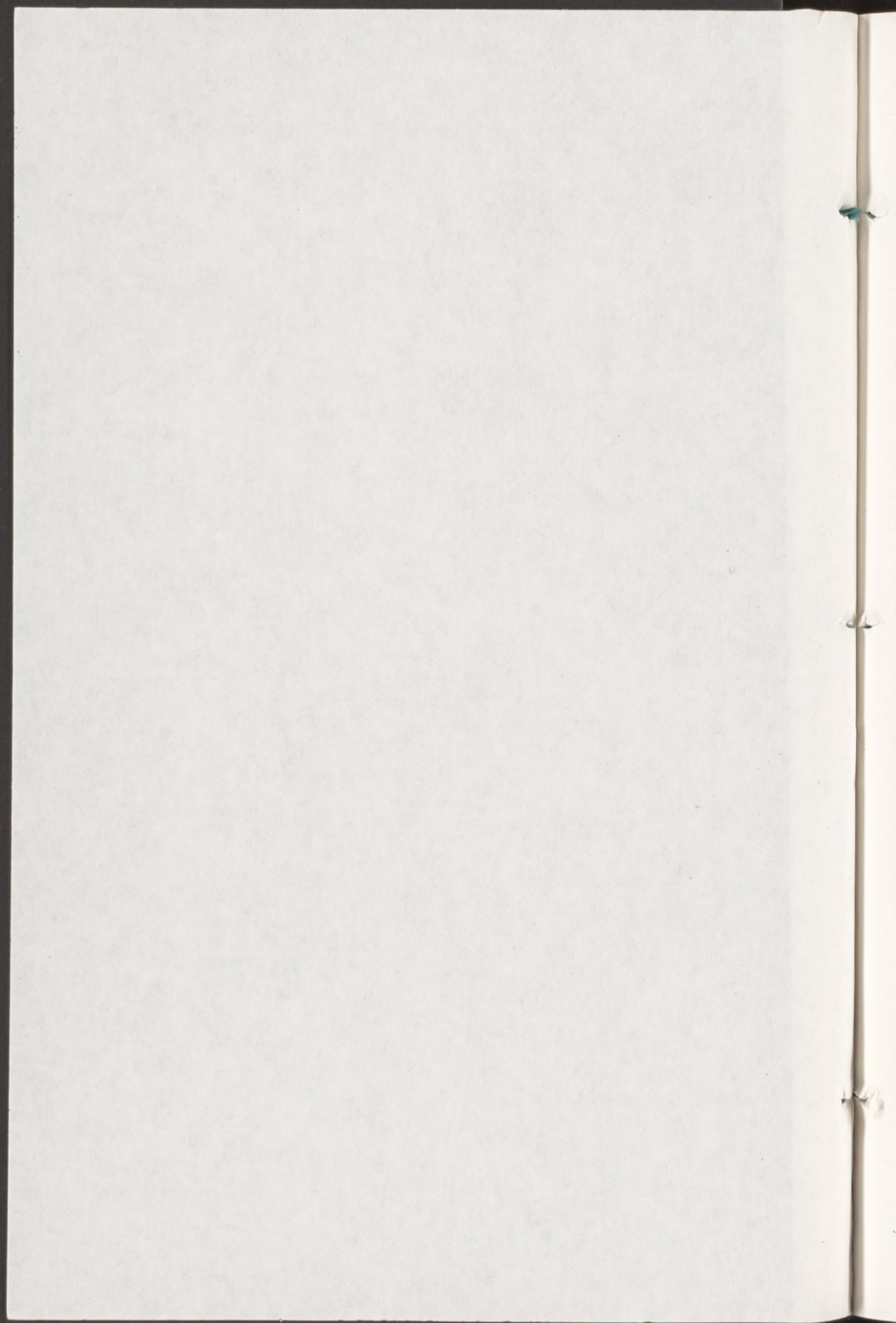
(١) امالي الصدوق ص ١٠.

(٢) الكافي الحديث ١١ باب الخوف والرجاء.

(٣) الكافي الحديث ٧ باب الطاعة والتقوى.

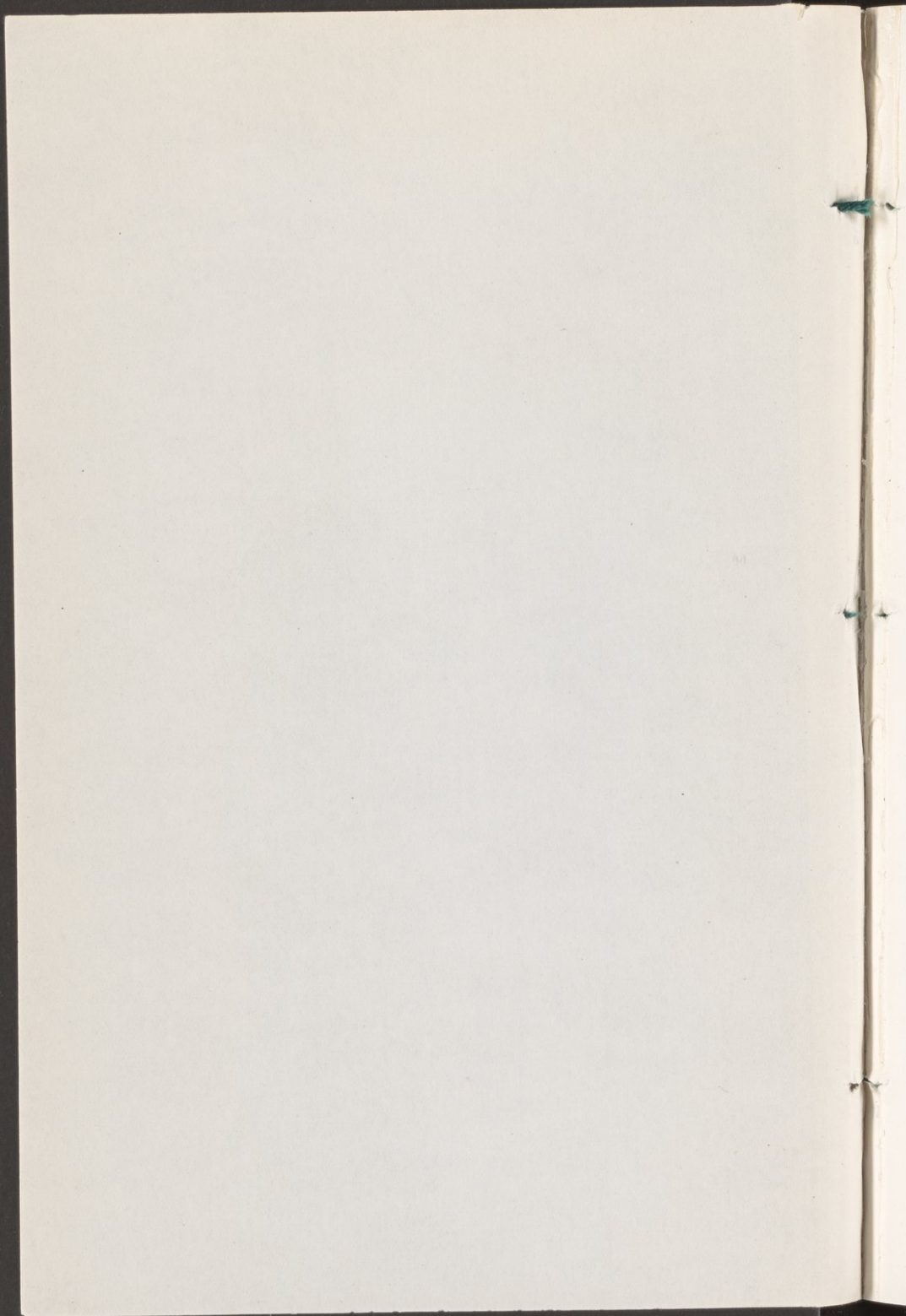
المصادر

- الكافي لثقة الاسلام محمد بن يعقوب الكليني ، وقد اعتمدنا في ضبط احاديثه على النسخة المطبوعة في هامش كتاب مرآة العقول للمجلسي .
- وسائل الشيعة للحر العاملي . وقد اعتمدنا في ضبط احاديثه على النسخة المعروفة بعين الدولة .
- أماي الشيخ الصدوق .
- الخصال له ايضاً .
- علل الشرائع له ايضاً .
- جامع السعادات للنراقي طبع ايران .
- الاحتجاج للطبرسي طبع ايران .
- تحف العقول للحسن بن ابي شعبة .
- مستدرك الوسائل للميرزا حسين المحدث النوري .
- الجزء الخامس عشر من كتاب بحار الانوار للمجلسي .
- علم الاخلاق «نيقولا ماخوس» تعريب الاستاذ احمد لطفي السيد بك
- الاخلاق للاستاذ أحمد أمين .
- الخلق الكامل . محمد أحمد جاد المولى بك .



المصادر

- الكافي لشعبة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني، وقد اعتمدنا في ضبط أحاديثه على النسخة المطبوعة في هامش كتاب مرآة العقول للمجلس.
- مسائل الشريعة للمرحوم العامل وقد اعتمدنا في ضبط أحاديثه على النسخة المروية بين النواة.
- أساني الشيخ الصدوق.
- التحصيل له أيضاً.
- عقل الشرائع له أيضاً.
- جامع السعادات للتراقي طبع إيران.
- الاحتجاج للطبرسي طبع إيران.
- تحف العقول للحسن بن أبي شعبة.
- مستدرك الوسائل، الميرزا حسين الخليلي التبريزي.
- الجزء الخامس عشر من كتاب بحار الأنوار للمجلس.
- علم الأخلاق لا يتقولا ماخوس التبريزي الأستاذ أحمد لطفى السيد بك
- الأخلاق للأستاذ أحمد أمين.
- الخلق الكامل، محمد أحمد جواد البول بك.







**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**

NYU - BOBST



31142 01251 2318

BP193.16.A3 Z39 1982 al-Akhlāq inda al-Imam al-Sādī

السعر ٩٠٥ ريال